برتراند راسل

السلطة والفرد

تعريب: شاهر الحمود

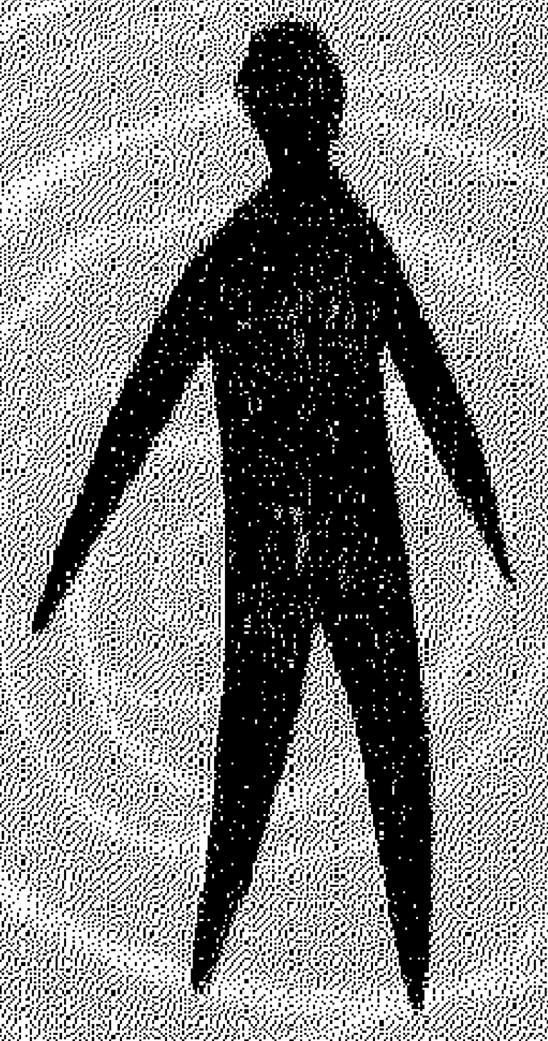

دار الطليعة - بيروت

برتران راسل

السلطة والفرد

نقله الى العربية

شاهر الحمود

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

Bertrand Russel

AUTORITY & THE INDIVIDUAL

Copyright : George Allen & Unwin

حقوق النشر باللغة العربية
محفوظة لدار الطليعة

الطبعة الاولى
كانون الثاني (يناير) ١٩٦١

فهرست

مقدمة المعرب ٥
١ . التماسك الاجتماعي والطبيعة البشرية ٢١
٢ . التماسك الاجتماعي والحكومة ٣٩
٣ . دور الفردية ٦١
٤ . اصطراع التكنيك والطبيعة البشرية ٨٠
٥ . المبادرة وسلطة الاشراف ومجالاتهما الخاصة ١٠٨
٦ . الاخلاقية الفردية والاخلاقية الاجتماعية ١٣٠

مقدمة المعرب

لقد اوجز المؤلف في الفقرة الاولى من اولى محاضراته « التماسك الاجتماعي والطبيعة البشرية » منهاج البحث في هذا الكتاب . اما مادته فأترك لك ان تطلع عليها بنفسك ، وارجو أن تجد فيها ، كما وجدت انا ، موضوعات تثير اهتمامك حقاً ، وبحثاً فذاً بناءً لا تخلص منه الا وقد ادركت ان هذه القضايا التي عالجها المؤلف هي قضايا تشعر بخطورتها ، ويبلغ من احساسك بها انك مدفوع الى المساهمة في معالجتها . وقد اقترح لك المؤلف السبيل الى ذلك .

وربما كان يجدر بالذكر هنا ان اشير الى ان محاضرات الكتاب كانت قد القيت اصلاً في المذياع ، اذ اعلنت مؤسسة الاذاعة البريطانية عام ١٩٤٧ عن اقامة محاضرات سنوية تدعى « محاضرات ريث **Reith** » . وقد دعيت

باسم اللورد ريث الذي لمع في تاريخ الاذاعة البريطانية كرجل وضع الاهداف والقيم التي يجب ان تسعى اليهـا الاذاعة . وفي كل عام تدعو هذه المؤسسة احد اعلام الفكر الكبار او ذوي الاختصاص والكفاءه لتقديم سلسلة من المحاضرات الى مستمعيها ، تبلغ في مجموعها ان تملأ كتاباً كاملاً . وتسعى دار الاذاعة ، بالاضافة الى تقديم مادة فكرية ممتازه الى المستمعين ، الى تشجيع الاكفاء والاختصائيين على اضافة جهد جديد الى التراث الفكري . وحبذا لو عملت دور الاذاعة العربية كذلك ، اذاً لحفزت الكثير من المفكرين الجديرين على اعتصار جهودهم في ابحاث يحس المواطن العربي بالحاجة اليها .

بعد ان انتهيت من الترجمة ، طلبت الى زميـل لم يطلع على الاصل الانجليزي ان يراجعها ، وينبهني الى العبارات التي تبدو مرتبكة او ملتبسة المعنى ، ظناً مني بأن العباره الانجليزية قد تكون تؤثر على مفهومي للعبارة العربيه فلا استطيع ان اكتشف مثل ذلك الارتباك او الالتباس ، وكان مما اقترحه هذا الزميل استبدال كلمات وعبارات هنا وهناك بكلمات وعبارات جميلة الوقع او جزلة اللفظ او قريبة الصلة بعبارات وصيغ نألفهـا او نقدسها . ولكنني لم استطع الا ان ادافع هذا الاغراء ، بعد ان راجعت الاصل الانجليزي ولم اجد سبيلاً الى التوفيق بين معنى ما يقترح ومعنى الاصل ، وفضلت

حرفية المعنى لأنهـا ادق في تمثيـل تسلسل تفكير المؤلف وأداء معناه ، او لأن معظم الكلمات المقترح تغييرها هي اكثر ارتباطات في التفكير ، بمعنى انها قد يستطاع استبدالها بكلمات اخرى غيرهـا ، ولكن تلك الكلمات الاخرى ، لو استعملتها ، فأنها قد لا تذكرنا عند قراءتها بنفس الكلمات الاصلية ، ولعلها لن تثير لدى القارىء الا حرفية معناها ذاته ، الذي قد لا يصلح بديلاً دقيقاً للاصل ، واذا اثارت تفكيراً بعبارات او معان اخرى فقد تكون هي ايضـاً بعيدة عن نوعية تفكير المؤلف واتجاهه ، وذلك لأن للعبارة المقترحة البليغة ارتباطات في تراثنا اللغوي أو الفكري الدارج ، ذات تداع يتفق وما اعتدنا من تفكير وما ألفنا من معانٍ .

إن الترجمة الناجحة لبحث فكري ، يجب ان تتقيد ، في رأيي ، بحرفية الكلمة ، ما دام ذلك يسمح للقارىء ان يفهم العبارة حسب قدرته على الاستيعاب ، ويفسح له مجال الالتقاء مع المؤلف في تيار فكري واحد . ان فكر المؤلف — مجموع افكاره واتجاهه الفكري — ليس هو ما استطيع ان افهمه انا منه وحسب ، كـما يلوح لي ، بل هو ايضاً مقرراته وصيغه اللفظية ، وبنية عبارته وفواصلها . فلماذا اذاً احشر تفكيرك في دائرة تفكيري وقدرتي على الاستيعاب ، طالما ان من الممكن ان انقـل اليك عبارة المؤلف ذاته ، بكلماته البسيطة التي لا يبدو ان

القارىء ، مع أنه ربما لم يألف استعمالها في هذا الموضع مثلاً ، يجدها ملتبسة وغير منسجمة . انني اكون قد كلفتك جهداً لا طائل لك منه ، لو اصررت على ان اقتص منك جزاء الجهد الذي بذل في الترجمة ، وأنتزع اعجابك باستعمال كلمات ضخمة اضع لها شروحاً في هامش الصفحات ، لتتكرم بوصفي بالتضلع والتعمق ، اذا كنت من اولئك الذين اعتادوا اعتبار الغامض الصعب هو الجيد من الكلمات او العبارات التي تستعمل في التعبير الفكري . بل لقد عمدت إلى تجنيب مثل هؤلاء الخسارة التي سيتعرضون لها بانصرافهم عن الفكرة نفسها الى كلماتها وبلاغتها وروعتها . ولا ادري مقدار ما اصبت من النجاح في ذلك ، ولكني بذلت مطلق جهدي .

وتبقى لدينا قضية اخرى هامة في الترجمة ، ربما أوحت بها الفقرة السابقة ، وهي قضية كفاءة اللغة العربية لافكار واساليب تعبير المفكرين الاجانب ، والغربيين منهم على الخصوص . ان الالفاظ ، كما هو معروف ، لا يستطاع وصفها بأنها عاجزة او كفء في ذاتها ، لانها مدلولات ولا غير . فالتصور والكفاءة اذاً يعتمدان على المعنى الذي تكوّن لدينا لهذه الكلمات ، وهذا المعنى يعتمد على المجالات التي تستعمل فيها الكلمات ، وعلى اساليب تعبيرنا ، وعلى تطورنا الفكري نفسه . لقد كان يشدد ايماني بكفاءة اللغة العربية ،

ورغبتي في ان اعطي برهاناً لذلك مهما كلفني من جهد ، من حرصي على حرفية ترجمة الكلمة ، حيثما بدا لي ان المؤلف يعني هذه الكلمة بالذات ، ولم يتعسر علي ان اجد للكلمات الانجليزية كلمات عربية بديلة ، وان قصرت عن معناها احياناً . وانا اعتقد ان هـذا التصور ناشيء عن الاختلاف الذي لا بد منه بين لغة واخرى ، وفي وظيفة كلمة ما في لغة ، قد لا تكون الكلمة التي اختيرت من اللغة الاخرى لتترجمها ، لها عين تلك الوظيفة . اي انه اختلاف في المعاني التي تتداعى بالكلمة . ان القضية هنا ليست قضية اللغة نفسها ، بل هي قضية الفرق بين مفهوم الكلمة في هذا اللغة وتلك ، قضية الفرق بين ما تثيره من معان ومن مترابطات لدى العربي والانجليزي مثلاً . فهذه الكلمة التي تظنها اصلح ، هي في الغالب كذلك لاننا اعتدنا استعمالها في مثل هذه العبارة التي نقرؤها ، ولكنها ليست افضل على اساس هذا الاعتبار . ويمكن ان تزيد من خصوبة معنى الكلمة ، اذا كنا نعتقد انها قاصرة فعلاً ، باستعمالها في موضعها الجديد ، حيثما يبدو ذلك معقولاً ، اذ ان الكلمات تتخذ معانيها من خلال الافكار التي تعالجها وطرق التعبير التي تستعملها . وبذلك تمكن إغناء الكلمة .

ان اللغة تحمل في تضاعيفها تجارب الامة وذكرياتها وخبراتها وتاريخها النفسي كله . وهنا تبرز مشكلة اخرى

غير مشكلة الكلمة ، وهي قضية «التعبير» او « المصطلح » . فإن عبارة ما قد يفهمها القارىء الانجليزي مثلاً للوهلة الاولى ، بينما لو ترجمت مفرداتها الى العربية ، لبــدت للقارىء العربي مفككة مبهمة لا تؤدي معنى مدركاً الا بصعوبة ، والعكس صحيح . ولكل لغة مصطلحاتها التي تقف عثرة في سبيل المترجم وتستنزف من جهده أكثر ما يبذل . ولعل هذا هو ما دعا البعض الى القول إن اللغــة العربية تعجز أحياناً كثيرة عن تأدية معان يسهل اداؤها بلغة اجنبية . قد يوفق المترجم احياناً إلى تعبير او مصطلح في هذه اللغة يؤدي ما يؤديه تعبير او مصطلح من اللغة الاخرى تختلف مفرداته ، لو ترجمت ، عن مفردات الاول . وهنا قد تحتم الضرورة مثل هــذا التصرف في الترجمة ، ولكن البعض يذهب في هذا التصرف مذهباً يبرر له ان يتخطى او يغيّر في أي عبارة قــد تلتبس عليه . ان من واجبات المترجم ، بالاضافة الى نقل الافكار كما يفهمها هو على الاقل ، ان يخضع للتعبيرات التي يستعملها المؤلف ، لأنه بذلك يهيء للقارىء ، وان وجد هذا القارىء صعوبة للوهلة الاولى ، لأن يسير مع تفكير المؤلف نفسه من جهة ، ولأن يستوعب ، من جهة اخرى ، هذا التعبير بسهولة حين يجده في نفس الكتاب مرة أخرى ، أو في كتاب مترجم آخر ، ومن ثم يضيفه الى ثروته اللغوية الفكرية ، والى التراث اللغوي نفسه عندما يشيع استعمالها . اني أرى

ان نحاول بالتدريج — وهذا ما يجري فعلاً — ان ندخل الى لغتنا مصطلحات اللغــات الاخرى ؛ فتكتسب لغتنا بذلك خصباً ، وتكون أقدر على خدمة ما يستطيــع ان يصل اليه الذكاء الحديث من طرق في التعبير ومن تفكير عميق او متشعب . ولكن ذلك ليس برهاناً على ان لغتنا عاجزة ، لأن كل لغة تختلف عن اللغات الاخرى هـذا الاختلاف الذي يعود الى الامم ذاتها . لا نستطيــع ان نلمس عـــذراً لتشويه المعنى وابهامه احياناً إلا في العجز عن الالمام بالموضوع نفسه . وخليق اذاً بالمترجم ان يكون على درايـــة مناسبة بمجال البحث الذي يود نقله الى لغته من جهة ، وعلى شيء من الخـــبرة بأساليب تعبير لغته نفسها من جهة اخرى ، ليتسنى له ان يقرب بين اللغتين بحيث يأتي المعنى سهلاً واضحاً ، والا كانت قراءة الترجمة نفسها عملية فكرية شاقة ، قد تتطلب من القارىء جهداً فكرياً يصرفه عن البحث الذي يقرؤه .

لقـــد تصرفت في مواضع قليلة ، حيث بدا لي ان الترجمة الحرفية مربكة للمعنى بشكل يضيــع على القارىء الفكرة ، وحرصت دائماً على ان استبقي كلمات المؤلف في غير ذلك . وليست الكلمات الحرفيـة التي أعنيها هي الكلمات المعجمية بالذات ، وانمـــا هي البديلات التي استطعت أن أجدها بمساعدة المعجم وفي حـــدود معاني الكلمة ومشتقاتها في اللغة الاجنبية ، ووفـــق امكانيات

اطلاعي وجهدي . وحرصت كذلك على بنية عبارة المؤلف ، بترتيبها وفواصلها ، كلما وجدت ان ذلك لا يربك المعنى . لقد تصرفت في بعض الكلمات تصرفاً لا ارتباط له بما وجدت للكلمة الانجليزية من معان في المعاجم ، حيثما خيّل لي ان الكلمة التي اخترتها ، مع اختلافها في المعنى المفرد ، تؤدي المعنى في الجملة أفضل مما تؤديه الكلمة المعجمية المقترحة ، واثبتُّ هنا وهناك تلك الكلمات والمصطلحات الانجليزية التي تصرفت فيها او بقيت متردداً في اختيار الترجمة المناسبة لها .

* * *

واذا كان لا بد لي من ان أقدم المؤلف ، مع ما اشعر به من ضآلة ما بوسعي ان أقوله فيه وفي أعماله ، فانني أجد من الواجب ان أشير الى ان ما سأقدمه في السطور التالية مأخوذ من المقدمة التي كتبها هو بنفسه لكتاب يترجم حياته ويعرض أفكاره وفلسفته ، والذي قام باعداده جماعة من الاساتذة والعلماء ، وطبعته جامعة الشمال الغربي بمدينة شيكاغو في الولايات المتحدة عام ١٩٤٤ . وقد أثبت الدكتور زكي نجيب محمود في كتابه « برتراند راسل » ترجمة للقسم الذي انتفعت به من هذه المقدمة .

ولد « برتراند راسل » ، الفيلسوف الانجليزي المعاصر عام ١٨٧٣ ، واستمر يؤلف طيلة النصف الاول

من هذا القرن العشرين .

ماتت امه وهو في الثانية من عمره ، ومات ابوه وهو في الثالثة ، فتولى تربيته جده لأبيه الذي كان اذ ذاك في الثالثة والثمانين . وعندما مات بعد عامين تركه في رعاية جدته لأبيه ، وكانت هذه الجدة متدينة متزمتة ، صارمة الاخلاق .

وجد في مكتبة جده غذاء فكرياً في مرحلة مبكرة من طفولته اذ كانت عامرة بكتب التاريخ . وكان لأسرته مكان ظاهر في التاريخ الانجليزي منذ مطلع القرن السادس عشر ، فقد أعدم جده « وليم لورد رسل » في حكم شارل الثاني ، فوجد في التاريخ ما يثير اهتمامه .

بدأ دراسته لاقليدس في عامه الحادي عشر ، فوجد في الرياضيات نشوة كبرى ، وظلت منذ ذلك الحين تشغل شطراً كبيراً من اهتمامه ، اذ وجد نفسه على قدرة خاصة فيها ، ووجد راحة في الاطمئنان الى ما فيها من يقين . وآمن كذلك ان الرياضيات هي القانون الذي تعمل بموجبه الطبيعة ، فالافعال الانسانية يمكن حسابها — كحركات الكواكب — بدقة ، اذا ما كانت لدينا القدرة الكافية لذلك .

وعندما بلغ الخامسة عشرة ، كانت قد تكونت لديه عقيدة بأن حركات الاحياء تنظمها قوانين الديناميكا كلياً ، وان حرية الارادة لذلك هي مجرد وهم خادع ، وكان

يحس مع ذلك ميلاً للتسليم بوجود الشعور الواعي لدى الانسان . ومع انه أحس ميلاً الى المادية ، لما وجد فيها من بساطة في التعليل ، ولأنها تنبذ « الكلام الفارغ » في تفسير الكون ، فهو لم يستطع ان يذهب معها كل مذاهبها .

عاش طفولة منعزلة ، اذ نشأ في داره على أيدي مربيات المانيات ، ثم مربين من الانجليز ، فلم يخالط الاطفال الا قليلا ، وهو لم يكن يجد فيهم ، عندما يخالطهم ، ما يثير اهتمامه . ولما بلغ عامه الرابع عشر اهتم بالدين اهتماماً شديداً ، وراح يقرأ مفكراً في حرية إرادة الانسان وخلوده . وكان يشرف على تربيته لبضعة أشهر استاذ متشكك ، فكان يجد الفرصة سانحة لمناقشته في تلك الامور ، لكنه طرد من عمله ، ظناً من أوليائه ان ذلك الاستاذ سيهدم أساس إيمانه . وفيما عدا مناقشاته معه ، فقد احتفظ بتفكيره لنفسه وكان يدونه بالحروف اليونانية مبالغة في التحفظ . بقي ثلاثة أعوام يفكر في الدين ، حريصاً ان لا تتأثر افكاره بأهوائه ، فانتهى بفكره الى عدم الايمان بحرية الارادة ثم الى نبذ فكرة الخلود ، ولكنه بقي على اعتقاده بوجود الله حتى عامه الثامن عشر . كان يكثر في تلك الفترة من القراءة ، ولكنها لم تكن قراءة موجهة . وعثر اخيراً ، عندما كان في السابعة عشرة من عمره ، على « شلي » الذي كان يجهله حتى ذلك

الحين ، فظل « شلي » وقتئــذ ولأعوام كثيرة الرجل المفضل لديه بين عظماء الماضي . ثم قرأ كثيراً « لكارلايل » وأعجب بكتابه « الماضي والحاضر » . وكان يكاد يتفق في الرأي مع « جون ستيوارت مل » صديق ابيــه من قبل ، وكان لكتبه « الاقتصاد السياسي » و « الحرية » و « خضوع المرأة » أثر عميق في نفسه ، وكتب تعليقات مفصلة على كتابه في المنطق .

حدث كل ذلك قبل ذهابه الى كيمبردج في الثامنة عشرة ، فاذا استثنينا تلك الأشهر التي كان يشرف عليه فيها الاستاذ ، رأينا انه لم يكن يجد خلال تلك الفترة من حياته ، من يعبر له عما يجول بخاطره من الافكار . فلما ذهب الى كيمبردج انفتح أمامه عالم جديد ، اذ وجــد للمرة الاولى انه يستطيع ان يجد من يستمع الى أفكاره بقبول حسن ، ويراها جديرة بالنظر . وكان « وايتهد » هو الذي اختبره في امتحان الدخول ، وكان من إعجابه به أن اطراه أمام من يكبرونه من التلاميذ ، فــلم يمض اسبوع واحد حتى تعرف الى من أصبحوا بعــد ذلك اصدقاء العمر كله . كان « وايتهد » إذ ذاك « محاضراً » و « زميلاً » في الجامعة ، وكان يكبره بعدد كثير من السنين ، فلم يكن من الممكن ان يتخذ منه صديقاً حميماً إلا بعد ان انقضت بضع سنين . كان يلتقي في كيمبردج بالكثير من الاتراب الذين يتميزون بقدرة عقلية وحماس

ونظر جدي الى الامور ، وكان هؤلاء الاتراب يمارسون نشاطات كثيرة خارج عملهم الجامعي ، فيولعون بالشعر والفلسفة ، ويناقشون السياسة والاخلاق وشتى نواحي الفكر ، وكان هؤلاء جميعاً يعتقدون بثقة ان التقدم الذي ظفرت بـه الانسانية إبان القرن التاسع عشر سيمضي في طريقه قدماً ، وان في مستطاعهم هم ان يضيفوا الى ذلك التقدم شيئاً له قيمته .

كان « ماكتاجارت » ، وهو الفيلسوف الهيجلي ، بين اولئك الاصدقاء ، فكانت هذه الجماعة شديدة التأثر به ، اذ حملهم على دراسة الفلسفة الهيجلية ، وتعلم منه « راسل » ان ينظر الى الفلسفة التجريبية الانجليزية نظرة ترى فيها فجاجة وسذاجة . أصبح راسل اذ ذاك يعتقد ان « هيجل » و « كانت » بدرجة أقـل ، يتصفان بعمق هيهات ان تجد له مثيلا في « لوك » و « بركلي » و « هيوم » ، بل هيهات ان تجده في « مل » الذي كان قـد اتخذه من قبل إماماً روحياً . وكان لاستاذه « ستاوت » أثر كبير في جعله هيجلي النظرة .

غادر كيمبردج عام ١٨٩٤ ، فاشتغل لبضعة اشهر من ذلك العام ملحقاً في السفارة البريطانية بباريس ، ولم تجد في نفسه الرغبة في السلوك السياسي ، فترك السفارة في نفس العام ، ثم تزوج وقضى شطراً من عام ١٨٩٥ في برلين يدرس الإقتصاد والديمقراطية الاشتراكية الالمانية .

وكانت زوجته اميركية من مدينة فيلادلفيا ، فذهب الى امريكا وقضى فيها ثلاثة أشهر من عام ١٨٩٦ ، فجعله ذلك الارتحـــال يتخلص من مرض النظرة الاقايمية الذي أصابته به كيمبردج . وعاد الى انجلترا فسكن في مقاطعة وسكس ، وكان لديه من المال عندئذ ما يكفيه ان يعيش في ميسرة دون حاجة الى عمل يرتزق منه ، فاستطاع ان ينصرف بفراغه كله الى الفلسفة والرياضيات .

ظل يعتقد بين عام ١٨٩٤ ـــ ١٨٩٨ بامكان البرهنة الميتافيزيقية على أشياء كثيرة عن الكون ، من مثل تلك القضايا التي كان يهيء له شعوره الدين أهميتها ، فانتهى به الأمر الى الاتجاه بحياته الى الفلسفة . وقـــدم رسالة ليحصل عـــلي درجة « الزمالة » جعل موضوعها أسس الهندسة ، فصادفت إعجاباً من « وورد » و « وايتهد » وكان من ثنائهما عليها ما ثبت اتجاهه الى الفلسفة .

أخـــذ في عام ١٨٩٨ يغير رأيـــه في « كانت » و « هيجل » معاً ، وكان « جورج مور » قـد اجتاز في حياته نفس المرحلة الهيجلية التي يمر بهـــا راسل ، ولكنها كانت عنده اقصر امـــداً ، فكان من تأثيره في راسل ان عجل في تخلصه هو ايضاً من تلك المرحلة ، اذ اتخذه راسل إمامـــاً في الثورة ، مدفوعاً بالطموح الى التحرر . كان « برادلي » يقول ان كل شيء يؤمن بـه

« الذوق الفطري » ليس سوى « ظواهر » ، فقام مور وراسل وعكسا الوضع تماماً ، وقالا إن كل ما يقترح « الذوق الفطري » انه الحق هو الحق ، ما دام ذلك الذوق الفطري لم يتأثر في ادراكه للشيء بفلسفة او لاهوت . وهكذا تغير العالم امامهم ، فبعد أن كان هزيلاً مقيداً بقواعد المنطق انقلب فجأة الى خصوبة وتنوع ومتانة .

وفي عام ١٩٠٠ زار المؤتمر الدولي للفلسفة في باريس ، فتأثر هناك بمناقشات « بيانو » وتلاميذه ، وطالب اليه أن يطلعه على مؤلفاته ، وكان من اثر دراسته له ان اتسع لديه نطاق الدقة الرياضية ، الذي اعتاده هو وصحبه ، فرآه يشمل موضوعات اخرى لبثت لديه حتى ذلك الحين نهباً للغموض الفلسفي . وكان من نتيجة كل ذلك ان تعاون مع « وايتهد » بعد عودته الى بريطانيا ، في تأليف كتابهما « اسس الرياضة » .

لما انتهى عام ١٩١٠ من كتابه « اسس الرياضة » رغب في الدخول الى البرلمان ، ولكن لجنة الترشيح رفضته اذ علمت عنه حرية الفكر . وعندما نشبت الحرب العالمية الاولى وجه اهتمامه الى مشكلة الحروب واجتنابها في المستقبل ، فكتب في ذلك مؤلفات وسعت من نطاق شهرته في جمهور القراء . وفي عام ١٩٢٠ زار روسيا السوفييتية ، وعاد منها دون ان يجد فيها شيئاً جديراً بحبه او حقيقاً باعجابه. ثم دعي الى الصين ، ولبث هنالك نحو عام ، فعلمته هذه

الزيارة أن يفكر تفكيراً يمتد ليشمل مسافات بعيدة من الزمن ، والا يدع الحاضر بسيئاته باعثاً على اليأس . ويقول راسل « ولولا هذا الدرس الذي تعلمته في الصين، لما احتملت العشرين عاماً التالية بما فيها من مآسٍ » .

وخلال السنوات التي اعقبت عودته من الصين ، شغل بالتربية في مراحلها الاولى ، ولبث فترة يختص التربيـة بمعظم جهده . وكان من رأيه انه لا غنى عن قدر معين من القسر في تربية النشء ، كما انه لا غنى عن مثل ذلك في الحكم ، وأن في مستطاعنا ان نهتدي الى طرائق تربوية يكون من شأنها التقليل من ذلك القسر الضروري . وكان من رأيه ايضاً ان احباط الغرائز الطبيعية في الطفل لا بد منته به الى تذمر من العالم وضيق به ، وهذا بدوره كثيراً ما ينتهي الى العنف والقسوة ، وأن التربية على نطاق واسع ينبغي ان تكون من عمل الدولة ، وبالتالي لا بد أن تسبقها اصلاحات في السياسة والاقتصاد .

وفي خضم احداث تلك الفترة ، التي رآها تسير بالعالم رويداً نحو الحرب والدكتاتورية ، وجد انه لا يملك أن يعمل عملاً يفيد ، فاسرع عائـداً الى حظيرة الفلسفة وتاريخ الفكر .

واخيراً ، فإن هذا الكتاب لا يمثل المؤلف تمام التمثيل، وانما هو ، إن كان لا بد ان يعطي له صورة ما ، فذلك المنهاج الفكري في عرض القضايا الخطيرة التي يعالجها في

كتابه . واكثر من ذلك ان راسل يرى ان اي كتاب من كتبه العديدة ، عدا ما كتبه في المنطق الرياضي ، لا يمثل وجهة نظره تمثيلاً كاملاً ، فهو يقول : « انك لو استثنيت ما كتبته في المنطق الرياضي ، جاز لك القول بصفة عامة بأن سائر كتبي لا تمثل وجهة نظري تمثيلاً كاملاً » .

واذا رغب القارىء في مزيد من المعرفة براسل وافكاره وانتاجه ، فلا ارى خيراً من أن يدرس الكتاب الذي الفه فيه الدكتور زكي نجيب محمود [1] ، إن لم يكن من الممكن أن يدرس كتب الفيلسوف نفسها .

اربد ٣ – ١٢ – ١٩٦٠ **شاهر حمود**

---

[1] برتراند راسل بقلم الدكتور زكي نجيب محمود ، من سلسلة نوابغ الفكر الغربي ، منشورات دار المعارف بمصر .

١

التماسك الاجتماعي والطبيعة البشرية

ان القضية الأساسية التي سأعرض للنظر فيها في هذه المحاضرات هي : كيف نستطيع أن نوفق بين ذلك المقدار الضروري للتقدم من مبادرة الفرد ، وذلك المقدار الضروري للبقاء من تماسك المجتمع ؟ وسأبدأ بما في الطبيعة من البواعث التي تجعل التعاون الاجتماعي ممكناً. وسأتفحص اولاً الاشكال التي اتخذتها هذه البواعث في المجتمعات المغرقة في البدائية ، وأتفحص بعد ذلك ما طرأ عليها من تكيفات في المؤسسات الاجتماعية الدائمة التغير التي نجدها لدى البلدان الراقية التمدن . ثم انظر بعدئذ في مدى وشدة التماسك الاجتماعي في مختلف الازمنة والامكنة ، متدرجاً الى مجتمعات الزمن الحاضر وامكانيات تقدم ابعد في المستقبل غير البعيد جداً .. وبعد هذا البحث

في القوى التي تجعل المجتمع وحدةً متماسكة سوف اتناول الجانب الآخر من الانسان في الهيئات الاجتماعيـــة ، أي مبادرة الفرد ، مبيناً الدور الذي لعبته في مختلف وجود التطور البشري ، والدور الذي تلعبه في الزمن الحاضر ، وامكانيات المستقبل من مبادرة قليلة جداً او كثيرة جداً للافراد وللجماعات . وسأمضي بعدئذٍ الى احدى المعضلات الاساسية في ايامنا ، اي النزاع الذي ادخله التكنيك الحديث بين المؤسسة **Organization** والطبيعة الانسانية ، او بتعبير آخر ، انفصال الحافز **motive** الاقتصادي عن بواعث الخلق والتملك . وإذ أفرغ من بسط هذه المشكلة ، فسوف انظر فيما يستطاع فعله في سبيل حلها ، واخيراً فسأعتبر مسألة علاقة فكر الفرد وجهده وخياله بسلطان الهيئـــة الاجتماعية على أنها برمتها قضية أخلاقية .

إن التعاون ووحدة المجموعة في كل الحيوانات الاجتماعية ، بما في ذلك الانسان ، يعتمد على اساسٍ من الغريزة . وهذا أكمل ما يكون في النحل والنمل ، التي لا يغريها كما يبدو أي شيء قط بأفعال غير اجتماعية ولا تنحرف ابداً عن الولاء للعش او الخلية . اننا قد نعجب الى حدٍّ ما بهذا الولاء الوطيد للواجب الاجتماعي ، ولكنه له نقائصه : إن النمل والنحل لا تنتج اعمالاً فنية عظيمة ، او تقوم بكشوف علمية ، او تأتي بديانات تعلّم أن النمل إخوة . فحياتها الاجتماعية ، في الحقيقة ، رتيبة محكمة ومطردة **static**

اننا نود ان يكون للحياة الانسانية شيء من الاضطراب اذا كنا بذلك سنفلت من مثل هذا الركود في التطور .

كان الانسان الاول نوعاً ضعيفاً وقليلاً وكان بقاؤه في اول الامر مهدداً ، وفي زمن ما هبط اسلافه من الاشجار وفقدوا موهبة اصابع القدم القابضة ، ولكنهم كسبوا موهبة استعمال الايدي والاذرع . وبهذه التغيرات اكتسبوا ميزة عدم الاضطرار الى العيش في الغابات بعد ذلك ، ولكن الامكنة المفتوحة التي انتشروا فيها ، يسّرت لهم من الغذاء اقل مما كانوا ينعمون به في غابات افريقيا الاستوائية الحارة . ويقدّر سير آرثر كيث ان الانسان الاول كان يحتاج ميلين مربعين من الارض لتزويده بالطعام ، وتقدر بعض الهيئات الاخرى الارض التي كان يحتاجها باكثر من ذلك . وقياساً على القردة الشبيهة بالانسان **Anthropoids** وعلى الجماعات المغرقة في البداثية التي بقيت الى الازمنة الحديثة ، فان الانسان الاول يجب ان يكون قد عاش في جماعات صغيرة ليست اكبر بكثير من الاسرة ، جماعات يمكن ان نقدرها ، تخميناً ، بين خمسين ومائة نسمة . ويبدو انه قد كان بين كل جماعة مقدار غير قليل من التعاون ، ولكنه كان هنالك عداء بين كل الجماعات التي من نفس النوع حيثما يحدث احتكاك بينها . وطالما بقي الانسان قليل العدد ، فما كان لهذا الاحتكاك بالجماعات الاخرى الا ان يكون عرضياً ، وغير

مهم جداً في اغلب الاحيــان . فقد كان لكل جماعــة منطقتها الخاصة ، وكانت تحدث المنازعات على الحدود فقط . ويبدو ان الزواج في تلك الازمنة القديمــة كان محصوراً ضمن الجماعة ، وهكذا حدث عــدد كبير من التزاوج فيما بين افراد الاسرة الواحدة ، مما كان يجعــل تباين افراد الجماعة الواحدة ، مهما تكن نشأته ، يتجه الى الاستمرار . واذا ازداد عدد الجماعة ازدياداً لم تعد أرضها كافية له ، فمن المرجح ان تدخل في صراع مع الجماعة المجاورة ، وفي هذا الصراع يتوقع ان اية مزية بيولوجية اكتسبتها جماعة أسرية ولم تكتسبها الجماعة الاخرى، ستحقق لها النصر ، وان تديم بذلك تباينها المفيد . لقد شرح سير آرثر كيت كل ذلك بشكل مقنع تماماً . ومن الواضح ان اسلافنا الاولين لم يكونوا يستطيعون العمــل وفق سياسة مدروسة متبصرة ، ولكنهم كانوا مدفوعين للعمل بآلية غريزية — آلية الصداقة فيما بين العشيرة والعداء لكــلّ الآخرين ، معاً . ولما كانت العشيرة البدائية صغيرة جداً، فلا بد ان يعرف كل فرد فيها الافراد الآخرين معرفــة حميمة ، وهكذا فان الشعور بالصداقة كان لا بد متساوقاً مع التعارف .

إن الاسرة كانت وما تزال اقوى الجماعات الاجتماعية واوثقها بالغريزة . لقد حتّم طول فترة الحضانة وانشغال الام تماماً عن جمع القوت بصغارها ، حتّم هذا نظام

الاسرة بين الكائنات البشرية ، وهو ما جعل الاب ، في الكائنات البشرية كما في معظم انواع الطير ، عضواً ضرورياً في جماعة الاسرة. لقد ادى ذلك حتماً الى تقسيم للعمل ، فيقوم الرجل بالصيد ، بينما تبقى المرأة في البيت . وكان الانتقال من الاسرة الى العشيرة الصغيرة مرتبطاً بيولوجياً ، على ما يحتمل ، بجدوى الصيد اذ يكون تعاونياً اكثر منه فردياً ، ثم ان تماسك العشيرة قد ازداد حتماً وتطور بالمنازعات مع العشائر الاخرى منذ زمن قديم جداً .

إن بقايا الانسان وانصاف الانسان الاولين هي الآن من الكثرة بما يكفي لاعطاء صورة واضحة تماماً لمراحل الارتقاء ، من ارقى قرود الانثروبويد الى ادنى الكائنات الانسانية . واقدم البقايا البشرية المحققة التي اكتشفت حتى الآن يقدّر انها تعود الى ما قبل مليون عام تقريباً ، ولكن يبدو ان قرود الانثروبويد الشبيهة بالانسان قد عاشت على الارض لا على الاشجار لعدة ملايين من السنين قبل ذلك الزمن . ان اوضح صفقة تتميز بها المرحلة التطورية لهؤلاء الاسلاف هي حجم الدماغ ،الذي ازداد بسرعة كبيرة الى ان وصل الى ما يقارب حجمه الحالي،ولكنه قد توقف الآن في الواقع منذ مئات الآلاف من السنين . وفي اثناء مئات الآلاف من السنين هذه تقدم الانسان في المعرفة والمهارة المكتسبة والتنظيم الاجتماعي

ولكنه لم يتقدم ، الى مدى ما نستطيع ان نتميز ، في المقدرة العقلية الخَلْقية Congenital . إن هذا التقدم البيولوجي الصرف قد تم ، وفق ما يستطاع تقديره من العظام منذ عهد بعيد . وعلى ذلك يفترض ان جهازنا العقلي الخَلْقي ، اي المجرد من معارفنا ، ليس مختلفاً جداً عن جهاز الانسان الباليوليتي . ولعله يبدو اننا ما زلنا نملك نفس الغرائز التي وجهت الانسان ، قبل ان يصير سلوكه موجهاً ، للعيش في قبائل صغيرة ، حاملة في طياتها ذلك التناقض الشديد في شعور الصداقة نحو الاقربين والعداء نحو الغرباء . ان التغيرات التي حدثت منذ تلك الازمنة القديمة كانت لا بد تعتمد في قوتها الدافعة على هذا الاساس من الغريزة البدائية من ناحية ، وعلى إحساس واع ضعيف بمصلحة ذاتية شاملة Collective احياناً . ان احد الاشياء التي تسبب الاجهاد والتوتر في الحياة الاجتماعية وشدة وطأتها هو ان في الامكان ، الى حدّ ما ، ان نعي أسساً عقلية لسلوك لا ينبعث عن الغريزة الفطرية . ولكن عندما يكف مثل هذا السلوك الغريزة الفطرية بقسوة ، فان الطبيعة تثأر لنفسها اما بالفتور والاهمال او التدمير ، وهما ما قد يسبب ايهما حالة مشحونة بمنطق الهدم .

ان التماسك الاجتماعي الذي بدأ بولاءٍ للجماعة يدعمه الخوف من الاعداء ، نما بعمليات بعضها طبيعية وبعضها

مقصودة حتى وصل الى التكتلات العظيمة التي نعرفها اليوم بالأمم . لقد ساعدت على هذه العمليات قوى مختلفة . ففي مرحلة قديمة جداً كان الولاء للجماعة يدعمه الولاء للزعيم . إذ في القبيلة الكبيرة يكون القائد او الملك معروفاً لكل انسان وحتى عندما يكون الكثير من المواطنين المدنيين غرباء كل عن الآخر . وبهذه الطريقة، فإن الولاء للشخص لا الولاء للقبيلة هو ما يجعل من الممكن حدوث زيادة في حجم المجموعة دونما التعرض للغريزة .

وفي مرحلة اخرى حدث تطور آخر ، فالحروب ، التي كانت في الأصل حروب ابادة ، صارت بالتدريج — على الاقل — حروب فتــوح ؛ والمغلوبون ، بدلاً من اعدامهم ، قد اتخذوا عبيداً وارغموا على العمل للفاتحين . وعندما حصل هذا صار هنالك نوعان من الناس في الهيئة الاجتماعية ، هما المواطنون الاصليون الذين كانوا وحدهم احراراً ، وكانوا هم مستودع الروح القبلي ، والأتبــاع الذين كانوا يطيعون بدافع الخوف ، وليس بدافع الولاء الغريزي . فقد حكمت نينوى وبابل بلاداً شاسعة ، لا لأن اتباعها كان لديهم اي احساس غريزي بالتماسك الاجتماعي مع المدينــة السائدة المسيطرة ، ولكنها لمجرد الهلع من سطوتها في الحرب . ومنذ تلك الايام الغابرة وحتى الازمنة الحديثة كانت الحرب هي الأداة الرئيسية في توسيع المجتمعات ، واحتل الخوف مكان التضامن القبلي كمصدر

للتماسك الاجتماعي. وهذا التغير لم يكن مقصوراً على المجتمعات الكبيرة ؛ فلقد حدث ، مثلاً ، في اسبارطة ، حيث كان المواطنون الاحرار اقلية ضئيلة ، بينما كان الارقاء مستعبدين بقسوة. لقد امتدحت اسبارطة في الازمنة القديمة لتماسكها الاجتماعي الرائع ، ولكنه كان تماسكاً لم يشمل قط كل السكان ، الا الى مدى ما يحتمه الخوف من ولاء ظاهري .

وفي مرحلة تالية من تطور المدنية ، بدأ نوع جديد من الولاء في الظهور : ولاء ليس مؤسساً على العلاقة الاقليمية او القرابة في الجنس ، وانما على الوحدة في المذهب . اما في الغرب فيبدو أن ذلك قد جاء مع الجماعات الاورفية **Orphic** التي قبلت العبيد على قدم المساواة . وفيما عداهم فقد كانت الديانة قديماً مقترنة تماماً مع الحكومة ، حتى أن الجماعات من ابناء الطائفة الواحدة كانوا مندمجين تماماً في الجماعات التي نشأت على الاساس البيولوجي القديم . لكن وحدة المذهب صارت بالتدريج قوة اشد فأشد . لقد ظهرت قوتها الحربية لاول مرة بالاسلام في فتوحات القرنين السابع والثامن . وهي التي اعطت القوة الدافعة في الحروب الصليبية وفي الحروب الدينية . وفي القرن السادس عشر كثيراً ما رجح الولاء الروحي على الولاء الوطني : فكثيراً ما وقف الكاثوليك الانجليز في جانب اسبانيا ، والهيجونوت الفرنسيون في

جانب بريطانيا . اما في وقتنا نحن ، فتستأثر بولاء قسم كبير من الجنس البشري عقيدتان ، احداهما ، وهي الماركسية ، لها ميزة الاشتمال في كتاب مقدس ، والاخرى ، وهي الاقل تحديداً ، هي مع ذلك ذات نفوذ واسع ، ويمكن ان ندعوهـــا « طريقة الحياة الاميركية » . إن اميركا المكونة من مهاجرين من بلاد مختلفة كثيرة ، ليس لها وحدة بيولوجية ، ولكن لها وحدة هي من القوة كوحدة الامم الاوروبية تماماً . وكما قال ابراهام لنكولن ، انها (اي امريكا) ، « ذات رسالة » . وكثيراً ما عانى المهاجرون في امريكا من الحنين الى اوروبا الوطن ، لكن اعقابهم ، في معظمهم ، يعتبرون طريقة الحياة الاميركية تفضل طريقة العالم القديم ، ويعتقدون جازمين ، انه سيكون لخير الجنس البشري أن تصير طريقة الحياة الاميركية هذه عالمية . لقد اتحدت وحدة العقيدة والوحدة القومية في كل من امريكا وروسيا ، واكتسبت بذلك قـــوة جديدة ، ولكن هذه العقائد لها جاذبية تتجاوز حدودها القومية.

إن الولاء للجماعات الكبيرة في زمننا ، بمقدار ما هو قوي ومقنع بذاته ، يستفيد كذلك من سيكولوجية التماسك القديمة التي كانت ايام القبيلة الصغيرة . إن الطبيعة الانسانية الخلقية ، لا ما يصنع منها بالمدارس والديانات ، بالدعايات والمؤسسات الاقتصادية ، لم تتغير كثيراً منذ الزمن الذي بدأ يكون للانسان فيه ادمغة من الحجم المألوف لدينا .

ونحن نقسم الجنس البشري بالغريزة الى اعداء واصدقاء — فالاصدقاء هم الذين نحس نحوهم اخلاقية التعاون، والاعداء هم الذين نحس ازاءهم اخلاقية المنافسة . ولكن هذا التقسيم يتغير باستمرار ؛ ففي وقت ما يكره الانسان مزاحمه في العمل ، وفي وقت آخر ، حين تهدد كليهما الاشتراكية او عدو خارجي ، يبدأ الواحد منهما ينظر الى الآخر كأخ. وعندما نتجاوز نطاق الأسرة ؛ فإن العدو الخارجي هو دائماً الذي يعطي قوة التماسك . ففي اوقات السلم نستطيع أن نقدم على كراهية جارنا ، لكننا عند الخطر لا بد أن نحبه . إن الناس لا يحبون ، في معظم الاحيان ، اولئك الذين يجدونهم يجلسون الى جانبهم في السيارات العامة ، ولكنهم يحبونهم اثناء الغارة الجوية (حيث يكونون جميعاً محشورين في المخبأ) .

وهذا هو ما يخلق الصعوبة في ابتكار وسائل لوحدة عالمية ، فالحكومة العالمية اذا توطدت بشكل راسخ ، لن يكون لها اعداء تخافهم ، وستكون لذلك في خطر الانهيار بسبب الافتقار الى الحافز للتماسك . لقد سعت ديانتان — هما البوذية والمسيحية — الى جعل حس التعاون الذي يكون تلقائياً بين افراد القبيلة الواحدة ، يتجاوزها الى الجنس البشري . فلقد بشرت كل منهما بأخوة الانسان ، مبينة باستعمالها لكلمة « اخوّة » ، انها تحاول أن تجعل حالة عاطفية هي في اصلها بيولوجية ، تتجاوز حدودها الطبيعية.

لو اننا كنا كلنا ابناء الله ، فنحن عندئذ اسرة واحدة ، لكن الواقع أن اولئك الذين اتخذوا هذا المذهب نظرياً ، احسوا دائمـــاً أن اولئك الذين لم يتخذوه مذهباً لهم ، ليسوا ابناء الله وانما ابناء الشيطان ، وهنا تعود فتظهر بادرة الكراهية القديمة لاولئك الذين هم غرباء عن القبيلة ، معطية قوة اضافية للمذهب ، ولكن في اتجاه ينحرف به عن غرضه الاصلي . إن الدين ، والاخلاق ، والمصلحة الاقتصادية الذاتية ، والسعي للبقاء البيولوجي المحض ، كلها تقدم لنا حججاً قاطعة في جانب التعاون العـــالمي الشامل ، لكن الغرائز القديمة التي انحدرت الينا من اسلافنا تثير في وقت الحنق شعوراً بان الحياة ستفقد نكهتها اذا لم يكن هناك من احد لنكرهه ، وبأن اي انسان يستطيع أن يحب وغـــداً كفلان لا بد أن يكون حشرة ، وبأن الصراع هو قانون الحياة ، وبأنه ليس هنالك ، في عالم نحب فيه كل منا الآخر ، من شيء نعيش لاجله . واذا كان توحيد الجنس البشري سيتحقق يوماً ، فسيكون من الضروري أن نجد طرقاً للتحايل على وحشيتنا البدائيـــة اللاشعورية ، وباقامة حكم القانون الى حدّ ما ، من جهة ، وبايجاد متنفسات بريئة لغرائز التنافس فينا من الجهة الاخرى .

ليست هذه مشكلة بسيطة ، وهي لا يستطاع حلهـــا بالنظرة الاخلاقية وحدها . إن التحليل النفساني ، مع ما

فيه ولا شك من مغالاة ، بل وحتى من خرق ، قد اعطانا الكثير من المعلومات الصحيحة والقيمة . وكان يقال قديماً إن الطبيعة ستعود ولو ذروتها بمذراة ، وقد فسر لنا التحليل النفساني هذا القول . اننا نعرف الآن أن حياة تسير بشكل مبالغ فيه في اتجاه مضاد للطبيعة يحتمل أن يترتب عليها من نتائج الانحلال ما لا يقل سوءاً عن القاء الحبل على الغارب للدوافع المحرمة . إن اولئك الذين يعيشون حياة غير طبيعية اكثر من اللازم يرجح ان يملأهم الحقد والحسد والجفاء . وقد تنمو فيهم اتجاهات وحشية ، أو هم ، اذا لم يحدث لهم ذلك ، قد يفقدون تماماً كل استمتاع بالحياة ، بحيث لا يعودون بعدئذ يملكون اي قابلية للسعي. وقد لوحظت هذه النتيجة الاخيرة لدى المتوحشين الذين اضطروا للاحتكاك فجأة بالمدنية الحديثة . لقد وصف علماء الانثروبولوجيا (علم دراسة الانسان) كيف ان صيادي الرؤوس البابوانيين ، وقد جردتهم سلطة البيض من رياضتهم المعتادة ، قد فقدوا كل لذة ولم يعودوا قادرين على الاهتمام لأي شيء. لست ارغب ان اخلص الى انه كان يجب ان يسمح لهم بالاستمرار في صيد الرؤوس، ولكني اعني انه كان يستحق العناء غير ان علماء النفس اهتموا بايجاد نشاط غير ضار يحل محله . ان الانسان المتمدن في كل مكان هو ، الى حد ما ، في وضع كوضع ضحايا الفضيلة البابوانيين . فنحن لدينا كل انواع الدوافع

العدوانية ، وكذلك الدوافع العلائية ، التي يمنعنا المجتمع من اطلاق العنان لها ، وقلما تكون النشاطات البديلة التي يهيئها المجتمع في شكل مباريات كرة القدم والمصارعة الحرة ، كافية . إن اي انسان يرد لو يكون من الممكن ان تلغى الحرب يوماً ما ، يجب ان يجد حلاً جدياً لمشكلة اشباع الغرائز التي ورثناها عن اجيال طويلة من المتوحشين اشباعاً لا ضرر فيه . اما فيما يخصني ، فانني اجد مخرجاً كافياً في القصص البوليسية ، حيث اضع نفسي بالتناوب مكان القاتل ثم مكان المحقق المترصد ، لكنني اعرف ان هناك اولئك الذين يجدون هذا المتنفّس التعويضي رقيقاً جداً ، ولا بد من ان يتهيأ لهم شيء اشد منه عنفاً .

لست اعتقد ان الكائنات العادية من الجنس البشري تستطيع ان تكون سعيدة دون وجود المنافسة ، لانها — اي المنافسة — كانت منذ كان الانسان ، الحافز لأهم الفعاليات . ولذلك فيجب ان لا نحاول ان نلغي المنافسة وانما ان نراعي فقط ان لا تتخذ اتجاهات ضارة كثيراً . كانت المنافسة البدائية صراعاً على اي الطرفين يقتل الطرف الآخر وزوجته واولاده ؛ وما زالت المنافسة الحديثة تتخذ في الحرب هذا الشكل ، ولكنها في الرياضة، وفي المسابقات الادبية والفنية ، وفي السياسة الدستورية ، تتخذ شكلاً يسبب ضرراً قليلاً جداً وهي مع ذلك تهيء متنفساً كافياً تماماً لغرائز الميل الى القتال فينا . إن المعضلة هنا ليست

ان هذه الاشكال من المنافسة سيئة ، وانما هي انها لا تكون الا قسماً ضئيلاً في حياة النساء والرجال العاديين .

وبغض النظر عن الحرب ، فقد هدفت المدنية الحديثة بشكل متزايد الى الامن ، ولكني لست متأكداً البتة ان ازالة كل خطر تحقق السعادة . واود ان اقتبس في هذا فقرة من سير ارثر كيث في كتابه **New theory of Human Evolution :**

« ان من زاروا اولئك الذين يعيشون تحت حكم (عدالة الغاب) يعودون بروايات عن سعادة الامم التي تعيش في تلك الظروف . فإن فريا ستارك مثلاً ، يكتب عن جنوب الجزيرة العربية هكذا : « عندما خلصت للتجول في ذلك الجزء من البلاد حيث ينعدم الامن ، وجدت شعباً ، مع انهم يملأ نفوسهم الاسى على حياة قطع الطريق واللصوصية الدائمة التي يحيونها ، فهم سعداء تمتلىء نفوسهم ببهجة الحياة المعتادة كما في اي مكان في الدنيا تماماً . » وللدكتور ه . ك . فراي تجربة مماثلة بين سكان استراليا الاصليين . فهو يقول : « إن المواطن يعيش في وطنه الضيق في خطر دائم ؛ والارواح المعادية تحدق به باستمرار . ومع ذلك فهو مرح وسعيد ... متسامح مع اطفاله ورفيق بوالديه الشيخين . » والمثال الثالث مأخوذ من هنود امريكا الكراويين **Crows** ، الذين كانوا يعيشون تحت مراقبة دكتور ر. لوري لعدة سنين . وهم يعيشون اليوم في طمأنينة التبطل **reserve** .

يقول دكتور لوري ، (اسأل واحداً منهم ما اذا كان يرغب في الطمأنينة كما هو حاله الآن ، او الخطر كما في الماضي ، وسوف يكون جوابه — « الخطر كما في الماضي .. فقد كانت فيه روعة » .) انني ارى ان الظروف القاسية للحياة التي كنت قد وصفتها ، هي الظروف التي عاش فيها الجنس البشري طيلة كل الفترة الاولى لنشوئه . وفي مثل هذه الظروف ، ومنها ممارسة الاخذ بالثأر ، تكونت الطبيعة والخلق البشريين . »

هذه الحقائق من السيكولوجيا البشرية تفسر بعض الاشياء التي كانت بالنسبة لي على الاقل ، مدهشة عندما تنبهتُ اليها لأول مرة عام ١٩١٤ . فإن الكثيرين من الناس يكونون خلال زمن الحرب اسعد مما كانوا زمن السلم ، شريطة ان لا تنزل بهم آلام الحرب بقسوة . ان حياة هادئة قد تكون كذلك حياة مملة . ان وجود المواطن الحسن السلوك المشغول بتحصيل معيشة متوسطة بمجهود متواضع ، هذا الوجود الذي لا مغامرة فيه ، يترك دونما اشباعٍ البتة كل ذلك الجانب من طبيعته ، التي لو عاش منذ اربعمائة الف سنة ، لكان وجد متسعاً لها في البحث عن الطعام ؛ وفي تقطيع رؤوس الأعداء ، وفي الإفلات من يقظة النمور . عندما تحدث الحرب قد يتاح لكاتب المصرف أن يفلت ويصير فدائياً ، ويحس اخيراً ، عندئذ ، انه يعيش كما ارادته الطبيعة ان يعيش.

لكن العلم قد وضع في ايدينا ، لسوء الحظ ، وسائل لاشباع غرائزنا الفتاكة ، هي من القوة الهائلة بحيث ان سماحنا لها بحرية العمل لا يعود يخدم اي غرض نشوئي ، كما كانت حين كان الانسان مقسماً الى قبائل صغيرة . ان مشكلة اقامة سلْم دائم مع دوافعنا الفوضوية هي مشكلة قليلاً ما درست ، ولكنها تصبح اكثر الحاحاً كلما تقدم التكنيك العلمي . واما من وجهة النظر البيولوجية الخالصة ، فإن الجانب التدميري من التكنيك قد تقدم لسوء الحظ اسرع كثيراً من الجانب البنائي . يستطيع الانسان ان يقتل في لحظة واحدة نصف مليون شخص ، ولكنه لا يستطيع ان ينشيء من الاطفال بأي حال اسرع مما كان يستطيع ايام اسلافنا المتوحشين . واذا كان بامكان الانسان ان ينشيء خمسمائة الف طفل بمثل السرعة التي يدمر بها بقنبلة ذرية خمسمائة الف عدو ، فيمكننا ، مع احتمالنا شقاء ذريعاً ، ان ندع المشكلة البيولوجية تسير بقانون تنازع البقاء وبقاء الاصلح . لكن طريقة النشوء القديمة لا يستطاع الاعتماد عليها بعد اليوم في العالم الحديث .

ولذلك فليست مهمة المصلح الاجتماعي ان يهيىء اسباب الامن فحسب ، لأن هذه الوسائل اذا لم تهيأ حين توجد رضىً عميقاً فإن الأمن سيُنتبذ من اجل روعة المخاطرة . ان المشكلة هي الى حدٍّ ما مزج تلك الكمية

من الامن الضرورية لبقاء الجنس البشري ، بأشكال من المغامرة والخطر والنضال تناسب طريقة الحياة المتمدنة . وعند محاولة حل هذه المشكلة يجب ان نتذكر دائماً ، انه بالرغم من ان اسلوبنا في الحياة ومؤسساتنا ومعرفتنا قد جرت عليها تغيرات جوهرية عميقة ، فإن غرائزنا الطيبة والشريرة على السواء بقيت الى حد كبير على ما كانت عليه حيث وصلت أدمغة اسلافنا الى الحجم الحالي للمرة الاولى .

لست اظن ان المواءمة بين البواعث البدائيـــة وطريقة الحياة المتمدنة امر مستحيل ، ولقـــد اظهرت دراسات علماء الانثروبولوجيا قابلية التكيف الواسعة في الطبيعة الانسانية لمختلف نماذج المعيشة . لكنني لا اظن ان مـــن الممكن تحقق ذلك بتجاهل تام لاي باعث اساسي . ان حياة بلا مخاطرة ، لا بد ان تكون غير مرضية ، لكن حياة يسمح فيها للمخاطرة ان تتخذ اي شكل تريـــده تكون ولا شك حياة قصيرة .

اعتقد ان جوهر القضية قد اوضحه حديث الهندي الاحمر الذي اقتبسته منذ هنيهة ، والذي تحسر على الحياة القديمة لانه « كان فيها روعة » . ان كل شخص قوي يريد شيئاً ما يستطاع اعتباره « روعة » . وهنالك من يحصل عليه — كنجوم السينما ، والرياضيين المشاهير ، وقادة الجيوش ، وحتى بعض السياسيين ، ولكنهم اقليـة

ضئيلة ؛ والباقون متروكون لاحلام اليقظة — في السينما ؛ وفي قصص مغامرات قفار امريكا ، وفي احلام شخصية بحتة حول امتلاك قوة خيالية خارقة . لست من اولئك الذين يظنون احلام اليقظة سيئة كلياً ، إنهـا جانب ضروري من حياة المخيلة . ولكنها عندما لا يكون لهـا لفترة طويلة من الحياة من الاسباب ما يربطهـا بالواقع فانها تصبح بسهولة حالةً مَرَضيّة بل وحتى خطرة على سلامة العقل . ربما لا يزال من الممكن ، وحتى في عالمنا الآلي ، ان نجد مخرجاً واقعياً للبواعث التي تنحصر الآن ضمن دائرة النزوات . ومن اجل الاستقرار يتعلق امـل كبير على امكانية حدوث ذلك ، لانه ، اذا لم يحدث ، فإن الفلسفات الهدامة سوف تبيد من وقت لآخر افضل الاعمال الانسانية . ولكي يمنع ذلك ، فإن الوحش الذي يكمن في داخلنا يجب ان يجد متنفّساً لا يصطدم والحياة المتمدنة او مع سعادة جارنا الذي هـو بالمثل يساوينا في «وحشيتنا» .

٣

التماسك الاجتماعي والحكومة

ان طريقة mechanism التماسك الاجتماعي الاصلية ، كما لا تزال تجري بين اكثر الاجناس إغراقاً في البدائية، كانت تتم بواسطة سيكولوجية الفرد دون الحاجة لأي شيء يمكننا ان ندعوه الحكومة . كانت هنالك ولا شك عادات قبلية كان على الجميع ان يطيعوها ، ولكن الانسان يجب ان يفترض انه لم يكن هناك باعث على عدم اطاعة تلك العادات او حاجة لقضاة او رجال شرطة لتطبيقها . وفيما يتعلق بالسلطات ، يبدو ان القبيلة قد عاشت في ازمنة العصر الحجري القديم في حالة توصف الآن بالفوضى ، ولكنها اختلفت عما تكون عليه الفوضى في المجتمع الحديث بأن البواعث الاجتماعية كانت تسيطر على افعال الافراد بشكل كاف . وكان انسان العصر الحجري الحديث

مختلف تماماً ، فقد ا ت لهم حكومة ، وسلطات قادرة على فرض الطاعة ، وتعاون ا باري على نطاق واسع . وهذا واضح من آثارهم ، فان الشكل البدائي لتماسك القبيلة الصغيرة ما ان يستطيع ان ينتج المسلة الحجرية ، بل واعظم من ذلك ... إن اتساع الوحدة الاجتماعية كان و... نتيجة للحرب بشكل رئيسي . فاذا قامت بين قبيلتين حرب بادة ، فان القبيلة الغالبة ستكون باكتسابها بلاد ... جديدة قادرة علي زيادة عددها . وكذلك فلا بد ان هنالك فائدة واضحة في الحرب من تحالف قبيلتين او اكثر ، فاذا استمر وجود الخطر الذي يحدث بسببه التحالف ، فإن هذا التحالف سيصير بعد زمن اندماجاً **amalgation** . وعندما صارت الوحدة اكبر من ان يعرف افرادها كل منهم الآخر ، فقد قامت الحاجة لجهاز ما **mechanism** للوصول الى القرارات الاجتماعية ، وهذا الجهاز تطور حتماً في مراحل الى ان اصبح ما يستطيع الانسان العصري ان يعرفه بالحكومة . وحالما تقوم هنالك حكومة ، تكون لبعض الناس سلطة اكثر من الآخرين ، وتعتمد السلطة التي لديهم ، بصفة عامة ، على كبر الوحدة الاجتماعية التي يحكمونها . ولذلك فإن حب السلطة سيجعل الحكام يرغبون في الفتوح . ويقوّي هذا الحافز كثيراً عندما يُتخذ المغلوبون عبيداً بدلاً من ابادتهم . وبهذه الطريقة نشأت في مرحلة قديمة

جداً مجتمعات ، مع ان الدوافع البدائية لتعاونها الاجتماعي ما تزال موجودة ، إلا انها كانت تدعمها بشكل هائل قدرة الحكومة على معاقبة اولئك الذين تمردوا عليه . ونجد في أقدم مجتمع واضح التاريخ ، مصر القديمة ، ملكاً كان يسيطر على منطقة واسعة سيطرة غير محدودة إلا بسلطة الكهنوت الى حدّ ما ، ونجد شعباً كبيراً خانعاً يستطيع الملك ، حسب مشيئته ، ان يستخدمه في مشاريع الدولة ، كالاهرامات . وفي مجتمعات كهذه ، فإن أقلية ضئيلة في قمة السلّم الاجتماعي — هي الملك ، والطبقة الارستقراطية والكهنة — هي وحدها التي كانت تحتاج الى موقف mechanism سيكولوجي نحو التماسك الاجتماعي ؛ واما الآخرون كلهم فكانوا يطيعون وحسب . وليس من شك في ان قسماً كبيراً جداً من الشعب كان بائساً ، فالانسان يستطيع ان يحصل على صورة لحالتهم من الفصول الاولى من « سفر الخروج » . ولكن بصورة عامة ، لم تمنع هذه الحالة من الشقاء الشامل رخاء الدولة ، وهي لم تعكر صفو حياة اصحاب السلطة ، طالما انه ليس هناك خوف من الاعداء الخارجيين . ولا بد ان هذه الاوضاع قد سادت لعصور طويلة في ما ندعوه اليوم بالشرق الاوسط . وكانت تعتمد في رسوخها على الدين وتقديس الملوك . وكان عدم الطاعة زندقة وإلحاداً . وكانت الثورة عرضة لان ينزل بها غضب الآلهة . وطالما بقيت الطبقات

الاجتماعية العليا تعتقد بهذا بإيمان ، فما كان للباقين إلا ان يروّضوا كما تروّض الحيوانات الأليفة اليوم .

من العجيب ان الفتوح الحربي كثيراً مـــا أحدث في المغلوبين اخلاصاً حقيقياً نحو أسيادهم . لقد حدث ذلك في كل الفتوحات الرومانية . وقد بقيت الغال في القرن الخامس ، عندما لم تعـــد روما تستطيع فرض الطاعة ، مخلصة للامبراطورية . ان كل الدول الكبيرة القديمة تدين بوجودها للقوة الحربية ، ولكن معظمها كانت تستطيع ، اذا امتد أجلها زمناً كافياً ، ان تخلق في نفوس الجميع شعوراً بالتضامن ، بالرغم من المقاومة العنيفة التي أبدتها أقسام كثيرة في وقت انضمامها . وقد حدث الشيء نفسه في نمو الدول الحديثة خلال العصور الوسطى . فقد اكتسبت انجلترا وفرنسا واسبانيا وحدتها كنتيجة لانتصار حـــاكم احدى مقاطعات البلد الذي صار فيها بعد أمة مستقلة ، انتصاراً حربياً .

لقد عانت الدول القديمة كلها ، في العصور القديمة ، ما عـــدا مصر ، الحاجة الى الاستقرار ، وكان أعظم اسباب ذلك هو التكنيك . فعندما لم يكـــن هنالك شيء يستطيع ان يسير أكثر من الحصان كان من الصعب على الحكومة المركزية ان تمسك الولاة ونواب القناصل النائين بيد حازمة ، فكانوا يستطيعون رفـــع راية العصيان ، فينجحون أحياناً في افتتاح الامبراطورية كلها ، وفي أحيان

اخرى يقيمون انفسهم حكاماً مستقلين على قسم منها . لقد كان للاسكندر وأتيلا وجنكيزخان امبراطوريات شاسعة تجزأت بموتهم ، وكانت تعتمد وحدتها كلياً على سطوة الفاتح العظيم . وهذه الامبراطوريات المتعددة لم تكن وحدتها وحدة سيكولوجية وانما كانت وحدة إكراه . لقد كان حظ روما أفضل ، اذ ان المدنية الاغريقية الرومانية كانت شيئاً قدره المثقفون ، وتفوقت بشدة عند مقابلتها ببربرية قبائل ما وراء الحدود . وحتى كان اختراع التكنيك الحديث ، ندر ان أمكنت المحافظة على تماسك امبراطورية كبيرة إلا اذا كان للطبقات العليا في المجتمع عاطفة مشتركة وحدت فيما بين فئاتها . وكان فهم الطرق التي تتولد بها مثل هذه العاطفة المشتركة أقل منه الآن بكثير . ولذلك ، فقد كان الأساس السيكولوجي للتماسك الاجتماعي ما يزال مهماً ، مع انه لا حاجة له إلا لدى الأقلية الحاكمة . لقد كانت الميزة الرئيسية لاتساع المجتمعات القديمة الهائل ، وهي امكانية تجهيز الجيوش الكبيرة ، تقابلها في الكفة الاخرى نقيصة الحاجة لوقت طويل لنقل جيش من طرف من الامبراطورية الى طرف آخر . وكذلك ان الحكومة المدنية لم تكن قد اكتشفت طرقاً لمنع ثورة الجيش . وقد امتد شيء من هذه الصعوبات الى ازمتنا الحديثة . لقد كانت صعوبة النقل هي ، الى حد كبير ، التي جعلت بريطانيا واسبانيا والبرتغال تفقد

ممتلكاتها في نصف الكرة الغربي . ولكن منذ ظهور الآلة البخارية والتلغراف أصبح أسهل مما كان قبلا بكثير ان نسيطر على بلاد كبيرة ، ومنذ ظهور التربية الموجهة أصبح من الأسهل أن نلقن شعباً كبيراً الكثير او القليل من الاخلاص الاصطناعي .

إن التكنيك الحديث لم ييسر سبل تنمية التماسك في الجماعات الكبيرة وحسب ، بل ايضاً جعل الجماعات الكبيرة ضرورة من وجهة النظر الاقتصادية و الحربية معاً . ان البحث في ميزات الانتاج الكبير هو موضوع مبتذل لتكراره ، ولست اعتزم ان أزيد فيه . وكما يعرف كل شخص ، فقد أعطيت هذه الميزة كبرهان لوحدة اوثق فيما بين بلدان اوروبا الغربية . لقد ساعد النيل على تماسك مصر كلها ، اذ أن حكومة تسيطر على القسم العلوي من النيل وحده ، كانت تستطيع ان تتلف محاصيل القسم السفلي . لم يكن يستلزم الامر هنا تكنيكاً راقياً ، ولكن سلطة وادي التنيسي وطريق نهر سنت لورنس المائي المقترح هي توسيعات علمية في فاعلية التماسك التي للأنهر . إن محطات توليد القوى المركزية ، التي توزع الكهرباء على مسافات شاسعة قد اصبحت هامة بشكل متزايد ، هي أكثر نفعاً عندما تكون المنطقة كبيرة مما لو كانت صغيرة . واذ صار من الممكن عملياً (وليس ذلك بعيد الاحتمال في الواقع) ان نستعمل الطاقة الذرية على نطاق

واسع ، فإن ذلك سيزيد من المساحة المنتفعة من التوزيع زيادة هائلة ويزيد كل هذا التقدم السيطرة على حيوات الافراد ، هذه السيطرة التي يملكها اولئك الذين يحكمون مؤسسات ضخمة ، وفي نفس الوقت يجعل عدداً قليلاً من المؤسسات أكثر انتاجاً من عدد المؤسسات الأصغر منها . وليست هنالك حدود مرئية لمزايا الضخامة ، سواء في المؤسسات الاقتصادية او السياسية ، حتى تشمل الكرة الارضية بكاملها .

وانتقل الآن الى تأمل آخر في نفس التطورات الحكومية تقريباً ، من وجهة نظر مغايرة . لقد تفاوتت سيطرة الحكومة على حيوات اعضاء المجتمع خلال التاريخ ، ليس في اتساع المساحة المحكومة فحسب ، وانما في مدى تدخلها في حياة الفرد . يبدأ ما يدعى بالمدنية بامبراطوريات ذات شكل معروف تماماً ، كانت مصر وبابل ونينوى اكثر الامثلة عليه وضوحاً ؛ وكانت امبراطوريات الانكا والازتك حتماً من نفس النمط . كان للطبقة العليا في هذه الامبراطوريات مقدار كبير من المبادرة الذاتية ، لكن الشعب الكبير المستعبد الذي غنمه الفاتحون بالفتوحات الأجنبية لم يكن له شيء من ذلك . كانت الكهانة قادرة على التدخل في الحياة اليومية الى درجة كبيرة جداً . وكان للملك ، إلا فيما يتعلق بالدين ، سلطة مطلقة ، وكان يستطيع ان يرغم رعاياه على الاشتراك في حروبه . ان تأليه الملك وتقديس الكهانة قد حققا مجتمعاً مستقراً

كما في مصر ، التي كانت أكثر البلاد التي نعرفها استقراراً . وكان ثمن هذا الاستقرار هو الركود ، اذ وصلت هذه الامبراطوريات الى حد من النمطية لم تعد بعده تقوى على مقاومة الغزوات الأجنبية ، فابتلعتها فارس ، وفي النهاية غلبت اليونان فارس .

اكتمل باليونان نمط حضاري جديد بدأه الفينيقيون : وهو حكومة المدينة المؤسسة على التجارة والقوة البحرية . لقد تباينت المدن اليونانية كثيراً من حيث مقدار الحرية الفردية المتاحة للمواطنين . ففي معظمها منحوا مقداراً كبيراً من الحرية ، اما في سبارطة فقد منحوا أدنى حد منها . ومهما يكن من امر ، فقد مال معظمها للوقوع تحت نفوذ حكام مستبدين ، وكان لها ، خلال فترات ليست بالقصيرة ، نظام حكم استبدادي تعود فتخفف منه الثورات . لقد كانت الثورة سهلة في الحكومة المدينية . فليس على الساخطين إلا ان يجتازوا مسافة أميال قليلة فيصيروا خارج منطقة الحكومة التي ينوون رفع راية العصيان عليها ، وكانت هنالك دائماً حكومات مدينية اخرى معادية مستعدة لمساعدة الثائرين . ولقد كانت هنالك خلال العصر الذهبي لليونان درجة من الاستبداد لعلها تبدو للعقل الحديث لا تطاق . ولكن مواطني المدينة اليونانية ، وحتى اولئك الذين كانوا في عصيان ضد الحكومة الفعلية ، قد حافظوا على سيكولوجية ولاء بدائي . فلقد أحبوا مدينتهم باخلاص ، كثيراً ما

كان خرقاً ، ولكنه كان حاراً دائماً تقريباً . ان عظمة اليونان في سمو عقل الفرد ، كانت ، كما أرى ، مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بعجزهم السياسي ، لأن قوة الروح الفردية كانت المنبع لكل من الابداع الفردي والفشل في حفظ الوحدة اليونانية . وهكذا سقطت اليونان تحت السيادة فسيطر عليها المكدونيون اولاً ، ثم سيطر عليها الرومان .

لقد تركت الامبراطورية الرومانيـة أقاليمها ، في زمن توسعها ، تتمتع بدرجة كبيرة جداً من الاستقلال الفردي والمحلي ، ولكن الحكومة أخذت تكتسب بعد أغسطس مقداراً من السيطرة اكثر فأكثر . وفي النهاية ، وبسبب ثقل وطأة الضرائب على الخصوص ، جعلت النظام كله ينهار في القسم الاعظم مما كان يدعى الامبراطورية الرومانية . واما فيما تبقى من الامبراطورية ، فانه ، مهما يكن من أمر ، لم يكن هنالك تراخ في السيطرة . لقد كانت معارضة هذه السيطرة الشديدة ، هي ، أكثر من أي سبب آخر ، ما جعلت استرداد جوستنيان لايطاليا وافريقيا وجيزة كذلك ، لأن اولئك الذين رحبوا في البدء بجيوشه كمخلصين من الجوت والوندال قد غيروا رأيهم عندما تلت الجيوش المحاربة جيوش من جباة الضرائب .

لقد آلت محاولة روما توحيد العالم المتمدن الى نهاية محزنة ، ويرجع ذلك الى حد كبير الى انها قد فشلت ، ربما بسبب كونها قاصية واجنبية معاً ، في تحقيق أي

مقدار من السعادة الطبيعية وحتى للمواطنين الموسرين . فقد كان هنالك في القرون الاخيرة من حكمها تشاؤم عـــام وافتقار للحيوية . لقد شعر الناس ان الحياة على هذه الارض ليس فيها ما تعطي إلا القليل . وهذا الشعور ساعد النصرانية في ان تمركز افكار الناس على العالم الآخر .

وبسقوط روما عانى الغرب تحولاً تاماً كلياً ، فتوقفت الحياة التجارية تقريباً وتهدمت طرق المواصلات الرومانية الكبرى لعدم صيانتهـــا ، وراح الملوك الصغار يحاربون بعضهم بعضاً باستمرار ، ويحكمون بلداناً صغيرة بافضل ما يستطيعون ، بينما كان عليهـــم ان يواجهوا فوضوية الارستقراطية التيتونية المتغطرسة والكراهية اليائسة التي تعتمل في نفوس الشعب اليوناني العريق . لقـــد اختفت تقريباً العبودية بشكلها الواسع ، في كل الممالك المسيحية الغربية ، ولكنها استبدلت بالقنانة . لقد عاشت المجتمعات الصغيرة التي كان احتكاكها بالخارج قليلاً ونادراً ، افضل ما تستطيع على انتاج ارضـــها الخاصة ، بدلاً من اعتمادها عـــلى الاساطيل الضخمة التي كانت تجلب الحبوب من افريقيا الى روما . لقد كانت الحياة صعبة وقاسية ، ولكنها لم تعد لها صفة الفتور والاهمال وانعدام الامـــل التي كانت تتصف بها في ايام روما الاخيرة . لقد كانت الفوضى سائدة طيلة العصور المظلمة والوسطى ، فكان نتيجة ذلك ان قدس رجال الفكر والقانون . وتدريجيـــاً ، ارتدت

الحيوية التي اتاحتها الفوضى الى شيء من النظـــام ، ومكنت سلسلة من الرجال العظـــام ان يبنـــوا مدنية جديدة .

ومنذ القرن الخامس عشر وحتى اليوم استمرت سلطة الدولة على الفرد تتزايد ، كنتيجة لاختراع ملح البارود في الدرجة الاولى . وكما قدس معظم رجـــال الفكر القانون ، في ازمنة الفوضى الاولى ، فكذلك كان ينمو هنالك ميل لتقديس الحرية في فترة تزايد سلطة الدولة لقد كان للقرنين الثامن عشر والتاسع عشر حظ لا بأس به من النجاح في زيادة سلطة الدولة الى الحد الضروري لحفظ النظام ، وترك مقدار كبير من الحرية ، مـــع ذلك ، لاولئك المواطنين الذين لا ينتمون الى الطبقات الاجتماعية الدنيا . ويبدو ان حافز الحرية قد فقد بعدئذ ، على اي حال ، الكثير من قوته لدى المصلحين ؛ فقـــد استبدلت بحب المساواة ، الذي بعثه الارتفـــاع الى غنى وقوة اقطاب الصناعة الجدد دونما حق موروث لهـــم في التفاضل . وقد اقنعت مستلزمات الحرب الشاملـــة كل انسان تقريباً بأن نظاماً اجتماعياً اكثر إحكامـــاً قد اصبح اكثر ضرورة من ذلك النظـــام الذى رضي بـــه اجدادنا

يقوم هنالك ، في جزء كبير من سطح الارض ، نظام لا يكاد يكون الا رجعة الى نظام الملكية المقدسة

المصرية القديم ، توجهه طبقة كهنوتية جديدة . ومع ان هذا الاتجاه لم يذهب بعيداً في الغرب كما ذهب في الشرق ، فهو بالرغم من ذلك ، قد وصل الى مدى كان سيدهش له اناس القرنين الثامن عشر والتاسع عشر في بريطانيا واميركا لو حدث في زمنهم . ففي كل منهما تخنق مبادرة الفرد بالدولة او بهيئات قوية ، وهنالك خطر كبير من ان يؤدي هذا ، كما حدث في روما القديمة ، الى نوع من الفتور والاستسلام fatalism القاتلين للحياة الناشطة .

تصل إليّ باستمرار رسائل تقول ، « انني ارى ان العالم في حالـة سيئة ، ولكن ماذا يستطيع شخص بسيط واحد ان يفعل ؟ ان الحياة والممتلكات تحت رحمة افراد قلائل بأيديهم تقرير الحرب والسلم . والاعمال الاقتصادية على اي مقياس واسع يقررها اولئك الذين يحكمون الدولة او النقابات Corporations الكبرى . وحتى حيث يكون هنالك دمقراطية اسمياً ، فإن ما يستطيع المواطن الواحد ان يحصل عليه من نصيب في توجيه السياسة هو في العادة متناه في الصغر . اليس من الافضل في مثل هذه الظروف ان ننسى الشؤون العامة وننتهب اكبر مقدار من المتعة بأي طريقة تتيحها لنا الظروف ؟ »

انني اجد من الصعب الاجابة على مثل هذه الرسائل ، وانني على يقين ان الحالة العقلية التي تؤدي الى كتابتها ضارة جداً بحياة اجتماعية سليمة . وكنتيجة للاتساع

وحده ، تزداد الحكومة بعداً عن المحكوم ، وتميل ، وحتى في النظام الديمقراطي ، لأن يكون لها وجود مستقل بذاته . ولست ادعي انني اعرف كيف يعالج هــذا الخطر بشكل ناجع لكنني اظن ان من المهم ان نتعرف الى وجوده وان نبحث عن طرق للتخفيف منه .

ان الطريقة **mechanism** الغريزية للتماسك الاجتماعي ، وهي الولاء للقبيلة الصغيرة التي يعرف افرادها كل منهم الآخر ، هي شيء بعيد جداً في الواقع عن نوع الولاء للدولة الكبيرة الذي اخذ مكانه في العالم الحديث . بل ان ما يتبقى من ذلك النوع البدائي من الولاء يحتمل ايضاً ان يختفي في المؤسسة العالمية الجديدة التي تتطلبها الاخطار الحالية . ان الانجليزي او الاسكتلندي يستطيع ان يشعر بولاء غريزي لبريطانيا : انه قد يعرف ما قاله شكسبير فيها ؛ إنه يعرف انها جزيرة ذات حدود طبيعية ؛ وهو مطلع على التاريخ الانجليزي ، في امجاده على الاقــل ؛ وهو يعرف ان الشعب في القارة الاوروبية يتكــلم لغات اجنبية . ولكن اذا استبدل الولاء لبريطانيا بالولاء للاتحاد الغربي ، فانه ستقوم الحاجة الى وجود وعي بكون الغرب له وحدة تتخطى الحدود القومية ؛ لانــه ليس هنالك ، غير هذا ، الا حافز سيكولوجي واحد ملائم لهذا الغرض ، وذلك هو حافز الخوف من الاعداء الخارجيين . لكــن الخوف حافز سلبي ويتوقف عن العمل في لحظة الانتصار .

وعندما يقارن بحب اليوناني لمدينته الام فانه يتضح مدى ضآلة تأثير **hold** الولاء الذي يعتمد على الخوف في غرائز وعواطف الرجل والمرأة العاديين في حالة انعدام الاخطار الملحة والمباشرة .

لقد كان للحكومة ، منذ اقدم الأزمنة التي وجدت فيها ، وظيفتان ، احداهمـــا سلبية والاخرى ايجابية . فكانت وظيفتها السلبية منع الخصومات الشخصية ، وحماية الارواح والممتلكات ، وان تسن القانون الجنائي وتضمن تنفيذه . ولكن لها ، بالاضافة الى ذلك غرضاً ايجابياً ، وهو ، ان تسهل تحقيق الرغبات التي يبدو ان الاكثرية العظمى من المواطنين يحسونها . ان الوظائف الايجابية للحكومة كانت في اغلب الاحيان مقصورة بشكل رئيسي على الحرب : فاذا امكن التغلب على عدو مـــا وكسب بلاده ، فإن كل انسان من الامة المنتصرة يكسب بدرجة كبيرة او صغيرة . لكن الوظائف الايجابية للدولة قـــد اتسعت الآن اتساعاً هائلاً . فهنالك قبل كل شيء التربية ، وهي لا تتضمن اكتساب الثقافة المدرسية وحسب ، وانما تتضمن ايضاً غرس ولاء معين وعقائد معينة ، هي التي تعتبرها الدولة مرغوباً فيها ، وبدرجة اقـــل ، في بعض الحالات ، ما يطالب به بعض رجال الدين . وهنالك ، بعد ذلك ، المشاريع الصناعية الكبيرة . فانه حتى في الولايات المتحدة التي تحد من وجوه النشاط الاقتصادي للدولة الى

اقل درجة ممكنة ، تتزايد السلطة الحكومية على مثل هذه المشاريع تزايداً سريعاً . ومن وجهة النظر السيكولوجية ، يوجد هناك فرق ضئيل بين المشاريع الصناعية التي تديرها الدولة وتلك التي تديرها الجمعيات الخاصة الكبيرة . وفي كلتا الحالتين يبقى هنالك ، في الواقع ، إن لم يكن عن قصد ، جماعة حاكمة بعيدة عمن تسيطر عليهم . ان الاعضاء الحاكمين ، في الدولة او في جمعية كبيرة ، هم وحدهم الذين يستطيعون ان يحتفظوا بشيء من المبادرة الذاتية ، هنالك لا شك ميــل لدى الهيئات المسيطرة لأن تنظر الى اولئك الذين يعملون في خدمتهم نظرتهم الى آلاتهم ، اي ، كمجرد وسائل ضرورية . إن الرغبة في تعــاون هادىء Smooth cooperation تميل باستمرار لأن تزيد في حجم الوحدات . فتقلل بذلك عدد الاشخاص الذين تبقى لهم قوة مبادرة . واسوأ من كل شيء ، من وجهة نظرنا الحالية ، ذلك النظام الذي يقوم في مناطق واسعة في بريطانيــا ، حيث تسيطر باستمرار على اولئك الذين علكون مبادرة ذاتية بالاسم ، سلطة عامة Civil Service لها حق النقض فقط ، وليس عليها واجب الشروع في العمل ، وهكذا تكتسب سيكولوجية سلبية ميالة على الدوام لعرقلة الامور . وفي مثل هذا النظام يصير الاقوياء الى اليأس ؛ اما أولئك الذين كان عمكن ان يصيروا اقوياء في ظروف اكثر ملاءمة فانهم عميلون لأن يصبحوا مستهترين .

وذوي همة فاترة ؛ وليس يحتمل ان تؤدّى وظائف الدولة بحيوية وجدارة ، لذلك . من المحتمل ان علم اقتصاد الحشرات كان يمكن ان يؤتي فوائد عظيمة اكثر بكثير مما يأتي به الآن ، ولكن ذلك يتطلب اعتماد رواتب لعدد غير قليل من علماء دراسة الحشرات ، والحكومة حالياً في جانب الرأي القائل بأن سياسة تبلغ بها الجرأة ان توظف علماء الحشرات يجب ان تطبق بحذر شديد . ولا حاجة للقول ان هذا هو رأي الرجال الذين اكتسبوا العادة التي نجدها لدى الوالدين غير الحكماء الذين يكررون دائماً : « لا تفعل ذلك الشيء » دون تريث للنظر فيما اذا كان « ذلك الشيء » ينتج اي ضرر . مثل هذه المساوىء يصعب جداً تجنبها حيث تكون هنالك سيطرة واسعة ، ويرجح ان تكون هنالك سيطرة واسعة في اي مؤسسة كبيرة .

سأنظر في محاضرة تالية فيما يمكن فعله للتخفيف من هذه المساوىء دون فقدان الميزات الاكيدة للمؤسسة الكبيرة. لعل الاتجاهات الحالية نحو المركزية اقوى من ان تقاوم الا اذا ادت الى الدمار ، ولعله لا بد للنظام بكليته ، كما حدث في القرن الخامس عشر ، ان ينهار ، مع حدوث كل النتائج المتحتمة من فوضى وبؤس ، قبل ان يستطيع الجنس البشري الحصول على ذلك المقدار من الحرية الشخصية التي بدونها تفقد الحياة نكهتها . ارجو ان لا تكون الحال كذلك ، ولكنها ستكون كذلك يقيناً الا اذا تحققنا من

وجود الخطر واتخذنا وسائل فعالة لمقاومته .

في هذا العرض الموجز للتغيرات التي جرت على التماسك الاجتماعي في الازمنة التاريخية ، يمكننا ان نلاحظ حركة ذات وجهين :

فمن جهة ، هنالك تطور متعاقب من بناء اجتماعي ذي شكل بدائي متفكك الى حكومة هي اكثر نظاماً واتساعاً واكثر سيطرة على حيوات الافراد . وفي نقطة معينة من هذا التطور ، حيث تكون قد نشأت حديثاً زيادة كبيرة في الثروة والأمن ، ولم تكن حيوية وجرأة العصور المتوحشة قد فسدت بعد ، فإن الظرف يكون مناسباً لاعمال مجيدة عظيمة في سبيل مدنية راقية . ولكن عندما تتوطد المدنية الجديدة ، وعندما يكون للحكومة الوقت الكافي لتنظيم قواها ، وعندما تقيم العادة والتقاليد والقانون نظماً تبلغ من الدقة ان تخنق الجرأة ، فإن المجتمع المعني يدخل في طور الركود . وعندئذ يمتدح الناس مآثر اسلافهم ولكنهم لا يستطيعون بعد ذلك ان يتساووا بهم ؛ ويصير الفن مبتذلاً ، ويختنق صوت العلم باحترامه للسلطات .

هذا النمط من التطور الذي ينتهي بالتحجر تجده في الصين والهند ، وتجده في بلاد ما بين النهرين ومصر ، وفي العالم الاغريقي والروماني . وتأتي النهاية عادة بفتوح غازٍ اجنبي : اذ تكون لدى هذه المجتمعات طرق قديمة لمحاربة اعداء قدماء ، ولكنه عندما يظهر عدو من نمط جديد

فإن المجتمع الاكثر قدماً لا تكون له قابليــة التكيف لاتخاذ الطرق الجديدة التي لا يستطيع ان ينجو بغيرها . واذا كان الفاتحون ، كما هو الحال غالباً ، اقل تمدناً من المهزومين ، فانهم على ما يحتمل لا تكون لهم المهارة لحكم امبراطورية كبيرة . او لحماية التجارة في منطقة واسعة . فينتج عن ذلك انخفاض في عدد السكان ، وتقلص في اجهزة الحكم وفي شدة سيطرة الحكومة . وبالتدريج ، في هذه الظروف التي تكثر او تقل فيها الفوضى ،يعود النشاط والحيوية ، وتبدأ دورة حياة جديدة .

ولكن بالاضافة الى هذه الحركة المتعاقبة،هنالك حركة اخرى . ففي اوج كل دورة ، تكون المساحة التي تسيطر عليها الدولة الواحدة اكبر مما كانت في اي وقت مضى ، وتكون درجــة السيطرة التي تمارسها الدولة على الافراد اكثر شدة مما كانت في اي قمّة رقي سبقت . فقد كانت الامبراطورية الرومانية اكبر من الامبراطورية البــابلية والمصرية ، وامبراطوريات العصر الحــالي اكبر من الامبراطورية الرومانية ، ولم يحدث ان كانت هنالك في التاريخ اي دولة كبيرة سيطرت على مواطنيها تماماً كما هو الامر في الاتحــاد السوفييتي ، او حتى في بلدان اوروبا الغربية .

واذ ان الكرة الارضية محدودة الاتساع ، فإن هــذا الاتجاه ، اذا لم يُمنع ، لا بد ان ينتهي الى خلق حكومة

عالمية واحدة . ولكنه لما كان لن يوجد عندئذ اي عدد خارجي فيشجع التماسك بسبب الخوف ، فإن العوامل النفسية القديمة لن تعود كافية . انه لن يتسع المجال للشعور الوطني في الحكومة العالمية ؛ إن القوة الدافعة يجب ان نجدها في المصلحة الخاصة وفي حب الخير ، خالية من محرضات البغضاء والخوف القوية . هل يمكن ان يوجد مثل هذا المجتمع ؟ واذا وجد ، فهل يستطيع ان يكون قابلاً للتقدم ؟ انهما سؤالان صعبان وسنعرض في محاضرات آتية بعض النقاط التي يجب ان توضع موضع النظر ، اذا كان لا بد من الاجابة عليهما .

لقد تحدثت عن حركة مزدوجة في التاريخ ، ولكني لا اعتبر ان هنالك صفة من اليقين او الحتمية نستطيع ان نكتشفها لنواميس التطور التاريخي هذه . فالمعرفة الجديدة يمكن ان تجعل مجرى الحوادث مختلفاً تماماً عما كان سيكون عليه بدونها ؛ وقد حدث ذلك ، مثلاً ، في اكتشاف امريكا . ويمكن كذلك ان يكون للمؤسسات الجديدة نتائج ما كان يمكن التنبؤ بها : فلست ارى كيف كان يمكن لاي روماني في زمن يوليوس قيصر ان يتنبأ بأي شيء مثل الكنيسة الرومانية البتة ، وليس من احد في القرن التاسع عشر ، ولا حتى ماركس ، تنبأ بالاتحاد السوفييتي . ولهذه الاسباب ، فإن كل النبوءات حول مستقبل الجنس البشري يجب ان تؤخذ فقط كفرضيات قد تستحق النظر .

اعتقد انه ، ما زال كل تنبؤ دقيق ليس الا تخرّقا، فهنالك بعض احتمالات غير مرغوبة، من الحكمة ان نضعها موضع النظر . فمن جهة ، قد تسبب الحرب الطويلة المدمرة القضاء على الصناعة في كل الدول المتحضرة ، مؤدية بذلك الى حالة من الفوضى المحدودة النطاق كتلك التي سادت في اوروبا الغربية بعد سقوط روما . وهذا سيستلزم انخفاضاً هائلاً في عدد السكان ، وشل الكثير ، ولو مؤقتاً على الاقل ، من انواع النشاط التي نعتبرها مميزة لطريقة متمدنة في الحياة. ولكن لعله يبدو من المعقول ان نأمل ان يُسترد في مدة وجيزة ، كما حدث في العصور الوسطى ، قدر ضئيل كافٍ من التماسك الاجتماعي ، وان العالم المفقود سيعود بالتدريج .

ومهما يكن من امر ، فهنالك خطر آخر ، وربما يكون تحققه اكثر احتمالاً . فإن التقنية الحديثة قد جعلت من الممكن الوصول الى مقدار جديد من الشدة في السيطرة الحكومية ، وقد استغلت هذه الامكانية استغلالاً تاماً في الحكومات الاستبدادية . إن من الممكن ، تحت وطأة الحرب او الخوف من الحرب او كنتيجة للفتوحات الاستبدادية ، ان تلك الاجزاء التي توجد فيها درجة من حرية الفرد قد تتقلص ، بل إن الحرية في هذه البلدان ايضاً قد تصبح اكثر فأكثر تحديداً . ليس هنالك براهين كافية لافتراض ان النظام الناجم عن ذلك سيكون قلقاً ، لكن من المؤكد

تقريباً انه سيكون راكداً وغير تقدمي . وستعود بعودته المساوىء القديمة : العبودية ، والتعصب ، والتزمت الديني ، والضنك والمذلة لغالبية الجنس البشري . وهذا ، في رأيي ، خطر في غاية الاهميـــة ان نتأهب له . ولهذا السبب فإن التأكيد على قيمة الفرد هو الآن اكثر ضرورة منه في اي وقت مضى .

هنالك مغالطة اخرى من المهم ان نتجنبها . فانني اعتقد بصحة ما كنت برهنت عليه من ان طبيعة الانسان الفطرية قد تغيرت قليـلا على ما يحتمل خلال مئات الآلاف من السنين ، ولكن ما هو فطري ليس الا جزءاً صغيراً في البنية العقلية للكائن البشري الحديث . ولست ارغب ان يستنتج اي انسان مما كنت اقول انه سيكون هنالك بالضرورة ، في عالم لا حرب فيه ، نوع من الخيبة الغريزية . إن السويد لم تشترك في حرب منذ عام ١٨١٤ ، اي لمدة اربعـة اجيال ، لكني لا احسب ان اي انسان قد استطاع ان يثبت ان السويديين قد عانوا في حياتهم الغريزية من حرمانهم من هـــذه البربرية . واذا نجح الجنس البشري في تحريم الحرب ، فان يكون من الصعب ان نجد مخارج اخرى لحب المغامرة والمخاطرة . إن المخارج العتيقة ، التي خدمت في وقت ما غرضاً بيولوجياً ، لم تعد كذلك ، ولذلك فاننا بحاجة الى مخارج جديدة . لكنه ليس هنالك في طبيعتنا الانسانية ما يرغمنا على الاسترسال في وحشية مستمرة . ان

دوافعنا القليلة الانتظام لا تكون خطرة الا عندما ننكرها او نسيء فهمها . وعندما نتجنب هذا الخطأ ، فإن مشكلة تكييفها بحيث تلائم نظاماً اجتماعياً حسناً يمكن ان تحل بالعقل وبالنيّة الطيبة .

٣

دور الفردية

في هذه المحاضرة ، سأعرض للنظر في اهمية الدوافع والرغبات ، سواء فيها الخيرة او الشريرة ، التي يحسها بعض افراد المجتمع ، وليس كلهم . تلعب مثل هـذه الدوافع والرغبات في المجتمعات الشديدة البدائية دوراً صغيراً جداً ، فالحرب والصيد نوعان من النشاط قد يكون احد الناس اكثر نجاحاً فيهما من انسان آخر ، ولكن الجميع يشتركون فيهما في غاية واحدة ، وطالما بقيت وجوه نشاط الفرد الخاصة تستحسنها العشيرة وتتشارك فيها ، فإن مبادرته لا يكبحها الآخرون من افراد عشيرته الا كبحاً هيناً جداً ، بل وتتفق اكثر اعماله الذاتية مع النمط السلوكي المعترف به . ولكن عندما يصير الناس اكثر تمدناً ، فانه سيزداد الاختلاف بين وجوه نشاط انسان وآخر ، وتحتاج الهيئة

الاجتماعية ، في نجاحها ، الى عدد من الافراد الذين لا يتفقون كلياً مع النموذج العام . لقد اعتمد كل التقدم ، من فني وخلقي وعقلي ، فعلياً ؛ على مثل هؤلاء الافراد ، الذين كانوا عاملاً حاسماً في الانتقال من البربرية الى المدنية . ولكي تتقدم هيئة اجتماعية ما تحتاج الى افراد غير عاديين ، وليست وجوه نشاطهم ، مع كونها مفيدة ، من نوع يتحتم أن يكون شائعاً . هنالك ميل دائم في المجتمعات الراقية التنظيم لعرقلة نشاط مثل هؤلاء الافراد دونما داعٍ ، ولكن ، من ناحية اخرى ، اذا لم يمارس المجتمع السيطرة ، فإن نفس النوع من المبادرة الفردية التي يمكن ان تنتج مبدعاً فذاً يمكن ايضاً ان تنتج مجرماً . إن القضية ككل القضايا التي تشغلنا هنا ، هي قضية مقادير ، فالقليل جداً من الحرية يسبب الركود والفتور ، والكثير جداً منها يسبب الفوضى والاضطراب .

هنالك عدة طرق يمكن ان يختلف بها الفرد عن معظم اعضاء مجموعته الآخرين . فهو يمكنه ان يكون فوضوياً او مجرماً غير عادي ؛ وهو يتمتع بموهبة فنية نادرة ؛ وهو قد يتمتع بما يعتبر في حينه حكمة جديدة في شؤون الاخلاق والدين ؛ وهو يتمتع بقوى عقلية فذة . ويبدو ان شيئاً من التخصص في الوظيفة لا بد قد ظهر منذ عهد قديم من تاريخ البشر . فالصور التي وجدت في كهوف جبال البرانس التي خلفها الانسان الباليوليثي هي ذات

مستوى عال من الجدارة الفنية ، ولا يستطيع الانسان ان يعترض بسهولة ان كل اناس ذلك الزمن كانوا أكفـاء لمثل هذا العمل الرائع . ويبدو ان الارجح ان اولئك الذين وجدت لديهم مواهب فنيـة كان يسمح لهم أحياناً ان يتخلفوا في الكهوف ينقشون الصور بينما تذهب بقية العشيرة للصيد . ان الرئيس والكاهن لا بد ان اختيارهما قد بدأ منذ زمن قديم جداً لمزايا خاصة ، حقيقية او مفترضة : فكان رجال الطب يستطيعون ممارسة السحر ، وكانت روح القبيلة متجسدة بمعنى ما في شخص الرئيس . ولكنه كان هنالك ميل منذ أقدم الأزمنة لأن يصير كل نشاط من هذا النوع شرعياً . فصارت الرئاسة وراثية ، وصار رجال الطب طبقة منفصلة ، وصار الزجالون المرموقون اوائل شعراء البلاط في ايامنا . لقد كان يصعب على المجتمعات دائماً ان تعرف ما هو الضروري للافراد الذين يرفدون الحياة الانسانيـة بتلك العناصر الضروريـة التي أعنيهـا ، وهي المجازفـة Wiedness والانفصال عن المجموع والاستجابة للدوافع ليست منفعتها واضحة لكل انسان .

أود في هـذه المحاضرة ان أدرس في كل من الزمن الماضي والحاضر عـلاقة الانسان غير العادي بالمجتمع ، والظروف التي تسهل لمواهبه غير العادية ان تكون مثمرة اجتماعياً . وسأدرس هذه القضية أولاً في حقل الفن ، ثم في حقل الدين والاخلاق ، واخيراً في حقل العلم .

ان الفنان في ايامنا لا يلعب تماماً ذلك الدور الحيوي في الحيـــاة العامة الذي كان يلعبه في كثير من الاجيـال السابقة . هنالك ميل في زمننا لاحتقار شاعر البلاط ، وللظن ان الشاعر يجب ان يكون كائنـــاً متفرداً يدعو لشيء لا يرغب الماديون في سماعه . واما من الناحية التاريخية فكانت المسألة مختلفة عن ذلك تماماً ؛ فهوميروس وفيرجيل وشكسبير كانوا شعراء بلاط ، وتغنوا بأمجاد قبيلهم وتقاليده النبيلة . (من حيث شكسبير ، لا بد ان اعترف ان هذا صحيح جزئياً ، ولكنه ينطبق تمامـــاً على مسرحياته التاريخية) . لقد تناقل الزجالون الويلزيون امجاد الملك آرثر ، حتى آلت الى نوال الشهرة على أيدي الادباء الانجليز والفرنسيين ، وقـــد شجعهم الملك هنري الثاني لاسباب استعمارية . إن روائع البارثينون وكاتدرائية العصور الوسطى كانت مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بموضوعات شعبية . والموسيقى ، مع انهـــا استطاعت ان تلعب دورها في الغزل ، وجدت في الأصل لتنمي الشجاعة في المعركة ـــ ذلك الغرض الذي يجب ، حسب رأي افلاطون ، ان تقتصر عليـــه بنص قانوني . ولكنه لم يبق في عصرنا الحديث من روائع الفنان القديمة هذه ، باستثناء عازف فرقة الهايلاند ، إلا النزر اليسير . اننا لا زلنا نمجد الفنان ، ولكننا نعزله ؛ اننا نظن الفن شيئاً منفصلاً ، وليس جزءاً مكملاً لحياة المجتمع . إن المهندس المعماري وحـــده ، لأن فنه يخدم غرضاً نفعياً ،

يحتفظ وحده بشيء من المنزلة القديمة للفنان .

ليس انحطاط الفن في أيامنا راجعاً فحسب الى ان الوظيفة الاجتماعية للفنان ليست من الاهمية كما كانت في الايام السالفة ؛ فانه يرجع كذلك الى ان الابتهاج التلقائي لم يعد ينظر اليه كشيء من المهم ان نكون قادرين على الاستمتاع به . ولدى الشعوب غير المثقفة نسبياً ، ما يزال الرقص الشعبي والموسيقى الشعبية يزدهران ، ويوجد شيء من الشاعرية لدى أناس كثيرين جداً . ولكن حالما يصير الناس أكثر تصنيعاً وتنظيماً ، فان نوع الابتهاج الذى يحسه الاطفال يعود مستحيلاً على البالغين ، لأنهم يفكرون دائماً بما هو آت ، ولا يستطيعون ان يتركوا أنفسهم تستغرق في اللحظة الحاضرة . ان عادة التفكير « بما هو آت » هذه ، أكثر خطراً على أي نوع من التفوق الجمالي من أية عادة عقلية اخرى يمكن تصورها ، واذا كان الفن ، بأي مفهوم هام له ، سيعيش ، فلن يكون ذلك على أساس أكاديمي جدي ، وانما باستعادة القابلية للمباهج والاحزان القلبية الحارة ، التي يكاد الحذر وبعد النظر يتلفانها كلياً .

إن اولئك المعترف تقليدياً بأنهم أعظم بني الانسان ، هم الذين أبدعوا في الدين والاخلاق . وبالرغم مما تغدقه عليهم الاجيال اللاحقة من تبجيل ، فلقد عانى معظمهم قليلا أو كثيراً من الصراع مع مجتمعاتهم خلال حياتهم .

لقد تكوّن التقدم في الاخلاق ، في معظمه ، من استهجان العادات القبيحة ، ومن المحاولات لتوسيع مجـــال المحبة الانسانية . لقد انقرضت التضحية بالانسان عند اليونان منذ بداية العصر التاريخي . وكانت تعاليم الرواقيين تقول انه يجب ان تكون هنالك محبة ليس نحو اليونان فحسب بل ونحو البرابرة والعبيــد ، أي نحو الجنس البشري كله . ونشرت البوذية والمسيحية مذاهب مماثلة في بلدان بعيــدة وعلى نطاق واسع . ان الديانة التي كانت في أصلها جزءاً من جهاز تماسك القبيلة ، باثارتها الصراع دون ان تثير معه ما فيها من تعاون ، قد اتخذت صبغة أكثر عالمية ، وأخذت تتخطى الحدود الضيقة التي وضعتهـــا الاخلاق البدائية ــ فلا عجب اذا لعن المبدعين الدينيين أهلُ زمانهم ، لأنهم سعوا الى سلبهم متعة القتال وشهوة الثأر الوحشية . ان الوحشية البدائية ، التي كانت تبدو فضيلة ، تعتبر الآن خطيئة ، وقد دخلت ثنائية عميقة فيما بين الاخلاق وعالم البواعث ــ أو بين الاخلاق التي يعلّمها الذين كان الباعث الانساني فيهم قوياً ، والاخلاق التقليدية التي كان يفضلها اولئك الذين لم يكن لديهم رأفة بمن هم أغراب عن مجتمعهم .

لقد كان للمبدعين الدينيين والاخلاقيين تأثير هائل في الحياة الانسانية ، ومع اننا يجب ان نعترف انه لم يكن دائماً التأثير الذي هدفوا اليه ، فقد كان مفيداً جداً على العموم . صحيح انه قد رأينا في أجزاء هامة من العالم في

القرن العشرين انهيار قيم اخلاقية كنا نحسبها في منجاة من ذلك ، ولكننا نستطيع ان نأمل ان هذا التقهقر لن يدوم . اننا ندين للرواد الاخلاقيين الذين حاولوا لأول مرة ان يجعلوا الاخلاق قضية عالمية وليست قبلية فحسب ، ندين لهم باستنكارنا العبودية ، وشعورنا بالمسؤولية نحو أسرى الحرب ، وبالحد من سلطة الآباء والازواج ، وبالاعتراف مهما يكن ضئيلاً ، بأن الشعوب الخاضعة للحكم يجب ان لا تسخّر لمنفعة حاكميها فحسب . لا شك ان كل هذه المكاسب الاخلاقية قد تعرضت لخطر الانتكاس للوحشية القديمة ، لكنني لست أظن ان التقدم الاخلاقي الذي يتمثل فيها سوف يضيع من ايدي الجنس البشري في النهاية .

ان الانبياء والحكماء الذين بدأوا هذا التقدم الاخلاقي ، مع ان معظمهم لم يكرموا في زمانهم ، كانوا ، مع ذلك ، غير ممنوعين من القيام بعملهم . اما في الدولة الاستبدادية الحديثة فالامور أسوأ مما كانت ايام سقراط ، او ايام الانجيليين Gospels . ففي الدولة الاستبدادية لا يُعدم المبدع الذي لا تروق الحكومة أفكاره وآراؤه وحسب ، وذلك امر لا يثني من عزم الرجل الشجاع ، ولكنه يمنع كلياً من نشر مذهبه . ان البدع في مجتمع كهذا لا يمكن ان تصدر إلا عن الحكومة وحدها ، والحكومة الآن ، كما في الماضي ، لا يحتمل ان تستحسن شيئاً يناقض مصالحها المباشرة . وفي الدولة الاستبدادية تكون حوادث كمثل

ظهور البوذية والمسيحية غير ممكنة ، ولا يستطيع المصلح الاخلاقي ، ولو بذل أعظم الاعمال البطولية ، ان يكسب أي تأثير مهما بلغ من الضآلة . وهذه ظاهرة جديدة في التاريخ الانساني ، جاءت بها السيطرة المتزايدة على الافراد التي هيأها تكنيك الحكم الحديث . انها ظاهرة خطيرة ، وهي توضح الى أي مدى سيكون نظام الحكم الاستبدادي مدمراً لكل نوع من أنواع التقدم الاخلاقي .

قلما يستطيع الفرد ذو الامكانيات الممتازة ان يأمل في ايامنا ان يحقق شأناً عظيماً او تأثيراً اجتماعياً كبيراً كما في الازمنة السالفة ، لو كرس نفسه للفن او للاصلاح الديني او الاخلاقي . ومهما يكن من امر ، فما تزال هنالك اربعة مجالات مفتوحة امامه ، فهو يستطيع ان يصبح زعيماً سياسياً مثل لينين ؛ وهو يستطيع ان يصل الى سيطرة صناعية واسعة مثل روكفلر ؛ وهو يستطيع ان يغير مفاهيم العالم باكتشاف علمي ، كما يفعل علماء الذرة . واخيراً ، اذا لم تكن لديه القابليات الضرورية لأي من هذه المراكز ، او أعوزته الفرصة ، فإن طاقته بعجزها عن ايجاد منافذ اخرى ، قد تسوقه الى الجريمة . ان المجرمين ، بالمعنى القانوني ، قلما يكون لهم تأثير كبير في مجرى التاريخ ، ولذلك فان الانسان ذا الطموح البعيد سيختار عملاً آخر اذا أتيح له .

ان صعود رجال العلم الى مركز عظيم في الدولة ظاهرة

حديثة . لقـــد كان على العلماء ، كغيرهم من المبـدعين الآخرين، ان يناضلوا من اجل الشهرة : فبعضهم أبعد وشرد؛ وبعضهم أحرق ؛ وبعضهم حجزوا في الزنزانات ؛ وآخرون أحرقت كتبهم فقط . ولكنهم قد اتضحت بالتدريج قدرتهم على ان يضعوا قوة بين ايدي الدولة . ان الثوار الفرنسيين ، بعد ان أرسلوا لافوازييه الى المقصلة ، استخدموا زملاءه الباقين في صناعـــة المتفجرات . وتعتبر كل الحكومات المتحضرة ان العلماء هم أكثر المواطنين فائـــدة في الحرب الحديثة ، شريطة ان يستطاع ترويضهم وإقناعهم انيضعوا أنفسهم في خدمة حكومة واحدة أكثر ممـــا يضعونها في خدمة الجنس البشري .

إن كل ما يميز عصرنا تقريباً من خير وشر عن العصور السابقة هو كله راجع للعلم . فلدينا في حياتنا اليومية الضوء الكهربائي ، والمـــذياع ، والسينما . وفي الصناعة نستخدم الآلات والقوى التي ندين بها للعلم . وبسبب الطاقة الانتاجية المتزايـــدة أصبحنا قادرين على تكريس نسبة من طاقاتنا للحرب وللاستعداد للحرب أكبر كثيراً ممـــا كان ممكناً سابقاً ، ونحن قادرون على ان نبقي الناشئين في المدارس لمدة أطول بكثير مما كنا نستطيع سابقاً . وبسبب العلم صار بوسعنا ان نبث اخباراً وننفي اخباراً بواسطة الصحافة والمذياع تصل الى كل شخص من الوجهة العملية . وبسبب العلم نستطيع ان نجعل إفلات من لا ترغب الحكومة فيهم

من قبضتها أصعب الى حد بعيد جداً مما كان سابقاً . ان حياتنا اليومية بكاليتها ونظامنا الاجتماعي برمته هو ما هو بسبب العلم . ان كل هذا التطور البعيد تدعمه الدولة في هذه الايام ، لكنه نما في الاصل رغماً عن الدولة ، وحيث ترتد الدولة الى شكل حكم بدائي ، كما في روسيا ، كان لا بد للاختلاف القديم بين العلم والدولة ان يظهر مرة اخرى لو لم تكن الدولة واسعة السيطرة الى درجة لم يحلم بها طغاة الاجيال السابقة .

لم تكن معارضة العلم في الماضي لتدهشنا بأي حال ، فلقد أثبت رجال العلم أشياء مناقضة لما كان يعتقد به كل شخص ، لقد قلبوا المعتقدات التقليدية فظُن انهم عاطلون من الايمان . لقد قال انكساغوراس ان الشمس كانت حجراً احمر حاراً ، وان القمر مكون من التراب ، ولهذا الكفر فقد أبعد عن اثينا ، أفلم يكن معروفاً تماماً ان الشمس إلـه والقمر إلهة ؟ لقد كانت السيطرة التي هيأها العلم على القوى الطبيعية هي وحدها التي أدت قليلاً قليلاً الى التسامح مع العلماء ، وحتى هذا التسامح كان عملية بطيئة ، لأن اعمالهم كانت تعزى في البداية الى السحر .

انه لن يكون من المدهش لو ظهرت في هذه الايام حركة لاعلمية عنيفة ، كنتيجة لما يتهدد الحياة الانسانية من القنابل الذرية وما قد ينتج من حرب الجراثيم . ولكن مهما بلغ من احساس الناس بهذه المخاوف فانهم لا يجرؤون

على الوقوف ضد رجال العلم ما دامت الحرب محتملة دائماً ، لأنه لو كان احد الجانبين مزوداً بالعلماء ، ولم يكن الجانب الآخر كذلك ، فإن الجانب العلمي سيكسب بالتأكيد تقريباً .

ان العلم طالما هو معرفة لا بد ان يعتبر ذا قيمة ، ولكنه اذ يكون تكنيكاً فإن قضية ما اذ كان سيحمد او سيذم تعتمد على الفائدة التي تجنى من التكنيك . انه في ذاته محايد ، لا هو خير ولا هو شر ، وان اية وجهة نظر قاطعة يمكن ان نتخذها حول ما يرجح هذه الكفة او تلك يجب ان تأتي من مصدر آخر غير العلم .

إن رجال العلم ، بالرغم من تأثيرهم العميق في الحياة العصرية ، هم اقل نفوذاً من السياسيين من بعض الوجوه . فالسياسيون في ايامنا اعظم تأثيراً بكثير مما كانوا في اي فترة سابقة في التاريخ الانساني . وليست علاقتهم برجال العلم الا كعلاقة الساحر بالجني الذي يطيع اوامره كما في كتاب الف ليلة وليلة . اذ يقوم الجني باشياء مذهلة خارقة ، لا يستطيع الساحر ، دون مساعدة الجني ، أن يفعلها ، اما الجني فهو يفعلها لانها تطلب منه وحسب ، وليس بسبب اي دافع ذاتي . وهذا هو حال علماء الذرة في ايامنا ؛ اذ تحتجزهم الحكومة في بيوتهم او في عرض البحار ، ويسخرون للعمل ، حسب ظروف اسرهم ، في خدمة هذا الجانب او ذاك . إن السياسي ، عندما يكون

ناجحاً ؛ لا يخضع لمثل هذا القسر . إن أشد ما يذهل في ايامنـــا هو ما قام به لينين . فبعد أن اعدمت الحكومة القيصرية اخاه ، قضى اعواماً في الفاقة والنفي ، ثم قفز في شهور قليلة ليحكم احدى اكبر دول العالم . ولم يكن هذا الحكم ، كحكم كسرى او قيصر ، مجرد الاستيلاء على الاستمتاع بالرفاه والملق ، الذي لولاه لكان هنالك رجل غيره يستمتع به . لقد كان الاستيلاء على سلطة صهر بلاد شاسعة وفقاً لنظام مرسوم في العقل ، لتغيير حيـــاة كل عامل ، وكل فلاح ، وكل فرد من الطبقة الوسطى؛ وادخال نوع من النظام جديد كل الجدة ، ليصير مثال حياة جديدة ، يعجب به البعض ، ويلعنه الكثيرون ، ولكن لا يتجاهله احد . ما كان لحلم اي مهووس أن يكون اكثر رهبة ، فلقد اكد نابليون انك تستطيع ان تفعـــل بالحراب كل شيء الا أن تجلس عليها ، اما لينين فقد جاوز الاستثناء .

[لقد كان الرجال العظماء الذين ظهروا في التاريخ بعضهم اخيار الجنس البشري وبعضهم على النقيض من ذلك تماماً. فبعضهم كالمبدعين الدينيين والاخلاقيين العظماء ، بذلوا ما في وسعهم للتخفيف من قساوة البشر كل نحـــو الآخر ، ولتوسيع مدى محبتهم ؛ ومنهم ، كرجال العلم ، من قدموا تعليلاً وفهماً للحوادث الطبيعية ، لا بد أن يعتبر مهما أسيء استعماله ، شيئـــاً رائعاً . ومنهم ، كالشعراء

والموسيقيين والرسامين العظام ، من زينوا العالم بروائع ، كان لها تأثير كبير في لحظات اليأس ، في جعلنا نحتمل مشهد المحنة البشرية . لكن هنالك فئة اخرى ، مساوية في كفاءتها للفئات الاولى ، وذات فعالية في الاتجاه الذي سلكته مساوية لها ايضاً ، وقد فعلت النقيض تماماً . فلست استطيع ان اصل بتفكيري الى اي شيء كسبه الجنس البشري بظهور جنكيزخان . ولست اعرف اي خير من ظهور روبسبيير ، ولست ارى ، من جهتي ، من داعٍ لأن نشعر بالامتنان من لينين . ولكن كل هؤلاء الرجال ، الطيبين منهم والاشرار على السواء ، كانت لهم صفة ما كنت ارغب ان اراها تختفي من العالم — صفة القوة والمبادرة الذاتية ، صفة استقلال العقل ، وصفة سعة الخيال . إن انساناً يمتلك كل هذه الصفات هو كفء لأن يفعل خيراً كثيراً ، او شراً كبيراً ، ولكي لا ينحدر الجنس البشري الى التبلّد ، يجب أن يجد مثل هؤلاء الرجال غير العاديين مجالاً ، ونود لو أن المجال الذي سيجدونه سيكون لمنفعة الجنس البشري . قد يكون الفرق بين مزاح مجرم عظيم ومزاح رجل دولة عظيم اقل مما يظن احياناً . ومن الجائز أن كابتن كيد والاسكندر الكبير ، لو أن ساحراً بدّل كلاً منهما بالآخر عند ميلاده ، كان سيحقق كل منهما المهمة التي حققها الآخر . ويمكن أن يقال للشيء نفسه في بعض الفنانين ؛ فمذكرات بنيفاتو سليني لا تعطي صورة لرجل

يحترم القـانون ذلك الاحترام الذي يشعر به كل مواطن صالح . إن النجاح المرموق ، في عالمنا الحاضر ؛ بل اكثر من ذلك ، الى ابعد ما يمكن التنبؤ به في عالم المستقبل القريب ، هو امر مستحيل وسيستحيل تقريباً على الفرد اذا لم يستطع ان يسيطر على مؤسسة واسعة . فإذا استطاع ان يجعل من نفسه رئيس دولة مثل لينين ، او محتكراً لصناعة كبيرة مثل روكفلر ، او مالياً كبيراً Controller of credit مثل بييرينيت مورغان الاكبر ، فانه يمكنه ان يُحدث تأثيراً هائلاً في العالم . ويستطيع ايضاً ان يفعل رجل العلم مثل ذلك ، اذا استطاع ان يقنع حكومة ما ان اعماله مفيدة في الحرب . لكن انساناً يعمل دون مساعدة اي منظمة ؛ كنبي عبراني ، او كشاعر ، او كفيلسوف منفرد مثل سبينوزا ، لا يستطيع ان يأمل في ذلك النوع من الاهمية التي كانت لمثل هؤلاء الرجال في الايام السالفة . وهذا الاختـلاف ينطبق على رجل العلم كما ينطبق على غيره . فلقد قام علماء الماضي باعمالهم منفردين الى حدّ كبير ، ولكن العلماء اليوم يحتاجون معدات كثيرة غالية جداً ويحتاجون معملا وعدداً من المساعدين . وكل هذا يستطاع الحصول عليه برعاية الحكومـة ، او ، كما في امريكا ، برعاية رجال اثرياء جداً . وهكذا فرجل العلم لم يعد مستقلا ، ولكنه اصبح بالضرورة جزءاً من مجموعة مؤسسة كبيرة. وهذا التغير امر سيء للغاية ، لأن الاعمال التي كان يستطيع الانسان

العظيم ان يتقدم بها على انفراد خليقة ان تكون اكثر نفعاً من الاعمال التي يستطيع ان يؤديها بمساعدة السلطات القائمة. إن الانسان الذي يطمح الى التأثير في امور الانسانية يجد من الصعب ان ينجح في ذلك ، الا كعبد او كطاغية : فهو كسياسي قد يجعل من نفسه رأس الدولة ، او هو كعالم قد يبيع للحكومة عمله ، ولكنه في هذه الحالة الاخيرة يجب ان يخدم اغراضها وليس اغراضه هو .

ولا ينطبق هذا على الناس ذوي العظمة النادرة والممتازة وحسب ، وانما على عدد كبير من اصحاب المواهب . ففي الاجيال التي ظهر فيها شعراء عظماء ، كان هنالك ايضاً اعداد كبيرة من الشعراء الصغار ، وفي وقت وجود الرسامين العظماء ، كان هنالك اعداد كبيرة من الرسامين الصغار . لقد ظهر المؤلفون الموسيقيون الالمان العظام في بيئة اجتماعية كانت تتذوق الموسيقى ، وجد فيها عدد من الناس الادنى منهم فرصاً طيبة . كان الشعر والموسيقى والرسم في تلك الايام ، جزءاً اساسياً من حياة الناس العاديين اليومية . كما هو حظ الرياضة — والرياضة وحدها — اليوم . كان الانبياء العظماء رجالا ظهروا من بين حشد كبير من الانبياء الصغار . وليس انحطاط عصرنا من هذه النواحي الا نتيجة محتومة لتمركز المجتمع وتنظيمه الى درجة عادت معها المبادرة الشخصية الى ادنى درجاتها . وقد ازدهر الفن في الماضي حيث ازدهر بصفة عامة ، لدى مجتمعات

صغيرة كان لها منافسين في جيرانها ، كحكومات المدن اليونانية ، ومقاطعات النهضة الايطالية ، وبلاطات الحكام الالمان الصغار في القرن الثامن عشر . فكان على كلّ من هؤلاء الحكام ان يكون له موسيقيه الخاص ، وحدث ان كان احد هؤلاء الموسيقيين جوهان سبستيان باخ ، ولكنه حتى لو لم يتح له ذلك ، فقد كانت لا تزال له الحرية لأن ينتج ما عنده . إن المنافسة المحلية شيء جوهري في مثل هذه القضية ، فهي قد لعبت دورها حتى في بنـــاء الكاتدرائيات ، لأن كل اسقف كان يطمح ان تكون له كاتدرائية اجمل مما للاسقف المجاور . ولعله سيكون امراً طيباً لو ان المدن أنشأت مفاخر فنية تؤدي بها الى منافسة متبادلة ، ولو ان كل مدينة كان لها مذهب خاص في الموسيقى والرسم ، ليس خلواً من ازدراء حيوي بناء لمذهب المدينة المجاورة . لكن مثل هذه المشاعر الوطنية المحليـــة لا تزدهر بسهولة في عالم الامبراطورية وحرية التنقل . ان مواطناً من مانشستر لا يحس نحو مواطن من شفيلد ما كان يحسه عفواً الاثيني نحو الكورنثي ، او الفلورنسي نحو الفنيسي . ولكن على الرغم مما يقوم من صعوبات ، فاني اظن انه سيكون لا بد من التغلب على مشكلة اعطاء اهمية للمحليات ، لكي لا تصبح الحياة الانسانية مملة ومضجرة بشكل متزايد .

ان الانسان المتوحش ، بالرغم من وجوده في هيئة

جماعية صغيرة ، قد عاش حياة لم يكن مجتمعه يعرقل
بادرته فيها كثيراً . وكانت الاعمال التي يرغب القيام
بها ، وهي الصيد والحرب عادة ، هي ما يرغب ان يقوم
، جيرانه ايضاً ، وهو اذا احس ميلاً لأنه يصبح طبيباً
، يكن عليه الا ان يحاول نيل الحظوة لدى احد المشهورين
تلك المهنة ، وبذلك يكتسب قدراته السحرية . وهو ان
كان ذا موهبة ممتازة ، قد يخترع تحسيناً في الاسلحة ،
او مهارة جديدة في الصيد . وهذا لن يضعه في خلاف
مع مجتمعه ، بل هو ، على العكس من ذلك ، سوف
يرحب به . اما الانسان المعاصر فيعيش حياة مختلفة تماماً ،
فهو ان غنى في الشارع فسيظن انه مخمور ، واذا رقص
فإن الشرطي سينهره لعرقلته السير . اما عمله اليومي ،
فهو ، الا اذا كان من ذوي الحظ الممتاز ، انهماك بطريقة
رتيبة كلياً في انتاج سلعة لا تقدّر ، كقطعة فنية جميلة ،
مثل ترس أخيل ، وانما تقدر لمنفعتها بشكل رئيسي .
وعندما ينتهي عمله اليومي ، لا يستطيع ، كراعي ملتون،
« ان يقصّ الحكايات تحت العليقة في بطن الوادي » ،
لانه لا يكون هنالك على الغالب وادٍ قريب من مكان
اقامته ، او ان وجد ، فهو مليء بالنفايات . وهو ،
في طريقة حياتنا الشديدة الاتساق ، ذاهل دائماً في امور
الغد ، والوصية الوحيدة التي اهملها المسيحيون اكثر من
غيرها ، من بين الشرائع الانجيلية ، هي عدم التفكير في

الغد . فاذا كان الانسان مدبراً ، قاده التفكير في الغد الى التوفير ؛ وان لم يكن مدبراً ، فسيجعله ذلك ينوء بالخوف من عجزه عن دفع ديونه . وفي كلتا الحالتين تفقد اللحظة التي يعيشها نكهتها . ان كل شيء منظم ، ولا شيء تلقائي . لقد وضع النازيون نظام « القوة مع الابتهاج Strength through joy » ، لكن الابتهاج الذي تعينه الحكومة يغلب ان لا يكون مبهجاً جداً . اما اولئك الذين قد يكون لديهم مطامح ذات قيمة ، فإن تأثير المركزية لا بد ان يؤدي بهم الى سباق مع عدد كبير جداً من المتنافسين ، والخضوع لمقياس ذوق موحد لا داعي له . واذا طمحت الى ان تكون رساماً ، فلن يقنعك ان تقارن نفسك الى امثالك من الناس في مدينتك ؛ انك ستذهب الى مدرسة للرسم في مدينة كبرى ، حيث ستستنتج على ما يحتمل انك متوسط ، واذ تصل الى هذا الاستنتاج فإن همتك قد تثبط الى درجة تغريك برمي فرشاة الرسم ، والمضي الى جمع المال او تعاطي الشراب . لأن النجاح لا بد له من درجة معينة من الثقة بالنفس . كنت تستطيع في ايطاليا عصر النهضة ان تأمل ان تكون احسن رسام في سينا Siena ، وكان ذلك المركز سيشبع طموحك للمجد تماماً . ولكنك اليوم لن يرضيك ان تتلقى تعليمك في مدينة صغيرة واحدة وتقارن نفسك الى جيرانك . اننا نعرف الكثير ونحس بالقليل . اننا على الاقل نحس قليلاً

بتلك الدوافع الخلاقة التي تنبع منها حياة طيبة خيرة . اننا فيما يتعلق بالامور المهمة سلبيون ، اما حين نكون ايجابيين فذلك في الامور التافهة . ولكي تخلص الحياة من ألم لا يزيحه الا الدمار ، فاننا يجب ان نجد وسائل للاحتفاظ بمبادرة الفرد ، ليس في الامور التافهة فحسب ، وانما في الامور المهمة حقاً . لست اعني اننا يجب ان نتلف تلك الاجزاء من النظام الحديث التي يعتمد عليها جوهر وجود عدد كبير من السكان ، وانما اعني ان النظام يجب ان يكون اكثر مرونة ، واكثر تلطيفاً بالحكم الذاتي ، وأقل وطأة على الروح الانساني بامتداده اللاشخصي ، مما صار اليه بنموه وتمركزه السريع الذي لا يطاق ، والذي لم تعد طرائقنا في التفكير والشعور قادرة على مجاراته .

٤

اضطراع التكنيك والطبيعة البشرية

يختلف الانسان عن غيره من الحيوانات الاخرى من عدة وجوه . احدها انه يُقبل على القيام بنشاطات غير سارة في حد ذاتها ، لانها وسائل لغايات يُرغب فيها . اما الحيوانات فهي تقوم باعمال يبدو ، من وجهة النظر البيولوجية ، انها تهدف الى غرضٍ مـا : كبناء الطيور لاعشاشها ، وكلاب الماء لاحواضها . وهي تؤدي هذه الاشياء بالغريزة ، لأن لديها باعثاً على القيام بها ، وليس لانها تدرك انها نافعة . انهـا لا تمارس ضبط النفس او التبصر او بعد النظر او ضبط الدوافع بالارادة . امـا الكائنات البشرية فهي تفعل كل ذلك . وعندمـا نمارسها اكثر مما تحتمل الطبيعة البشرية ، فاننا نعانـي من ذلك اضطراباً سيكولوجياً . ولا بد في اسلوب الحيـاة المتمدنة

من معاناة بعض هذا القصاص ، ولكن الكثير منه لا تدعو له ضرورة ، ويمكن ان نتلافاه باتخاذ اسلوب مغاير من التنظيم الاجتماعي .

لقد كان في حياة الانسان الاول القليل من هذا الصراع بين الوسائل والدوافع . فكان الصيد والحرب والتناسل ضرورياً للبقاء وللتقدم التطوري ، ولكن ذلك لم يكن السبب في انشغاله بهذه النشاطات . فهو قد انشغل بها لانها امتعته . لقد صار الصيد بمرور الزمن تسلية الاغنياء الكسالى ؛ لقد فقد فائدته البيولوجية ، ولكنه بقي ممتعاً . اما النزاع ، البسيط المنبعث عن الدوافع مباشرة ، فلم يعد يسمح به الآن الا لأولاد المدارس ، ولكن طبيعة الصراع ما تزال قائمة ، وهي ان لم تجد منصرفاً معقولاً ، وجدت مخرجها الكبير الخطورة في الحرب .

ومهما يكن من امر ، فإن الانسان الاول لم تخل حياته كلياً من نشاطات كان يحس انها مفيدة اكثر مما يشعر انها جذابة بذاتها . لقد بدأ صنع الادوات الحجرية في مرحلة مبكرة جداً من النشوء الانساني ، وبذلك استهل التقدم الطويل الذي ادى الى نظامنا الاقتصادي الحالي المتقن . ولكن ، لعل متعة الخلق الفني ولذة الزيادة المرجوة في القوة كانت تخفف من وطأة المراحل الشاقة من العمل في العصر الحجري القديم . وعندما تكون الرحلة من الوسائل الى النتائج ليست طويلة جداً ، فإن الوسائل نفسها

يُستمتع بهـا اذا كان يُرغب في النتيجة رغبة حارة فالصبي يرهق نفسه في صعود المرتفع بزلاجته سعياً وراء اللحظات القصيرة القليلة من السعادة التي يحسهـا خلال الانحدار ؛ وهو لا يحتاج ان يحثه على الاجتهاد في ذلك اي انسان ، ومهما قد يزفر ويلهث فانه يبقـى سعيداً . ولكن لو انك بدلاً من الجزاء المباشر وعدته بمعاش تقاعد في شيخوخته عندمـا يصير في السبعين فإن طاقته سوف تنضب سريعاً .

ان جهوداً اطول كثيراً في مداها وأمدها من جهود ذلك الصبي ذي الزلاجة ، يمكن ان تبعثها دوافع خلاقة ، وتبقى مع ذلك تلقائية . ان الانسان قد يقضي سنوات من الضنك والخطر والفقر في محاولات ليتسلق قمة افرست او ليصل الى القطب الجنوبي او ليقوم بكشف علمي ، وهو يعيش كل وقته مستغرقاً في دوافعـه استغراق الولد ذي الزلاجة شريطة ان يرغب في النتيجة رغبة حارة ويجعـل من كبريائه تغلباً على العقبات . فهي كما قال الهندي الاحمر « يوجد فيها روعة » .

لقد بدأ بدخول نظام الرق الانفصال بين غرض العمل واغراض العامل .. فقـد بنيت الاهرامات ليفخر بهـا الفراعنة ؛ ولم يكن للعبيد الذين بنوها نصيب في الفخر ، وهم لم يشتغلوا الا خوفـاً من سوط الرقيب . وكذلك الزراعة ، عندما اصبحت تقوم على اكتاف المستخدمين

والعبيد ، لم تعد تجلب اي ارتيـــاح مباشر لاولئك الذين يقومون بالعمل ؛ ولم يكن مطمعهم اكثر من ان يكونوا احياء ولا يتعرضون (حسب مـــا تتيحه حظوظهم) لألم جسمي .

وفي العصر الحديث ، في الفترة الـــتي سبقت الثورة الصناعية ، زاد التخفيف من الاستعباد ونمو الحرف اليدوية من عدد العمال الذين هم سادة انفسهم ، والذين كانـــوا لذلك يستطيعون الاستمتاع بشيء من الاعتزاز بما ينتجونه . ان هـــذه الاحوال هـــي التي ادت الى ذلك الشكل من الدمقراطيـــة الذي نادى به جفرسون والثورة الفرنسية ، والذي يفترض عدداً كبيراً من المنتجين يتفاوتون استقلالاً ، بدلاً من المؤسسات الاقتصادية الضخمة التي خلقتها التقنية الحديثة .

خذ مصنعاً كبيراً ، وليكن مصنع سيارات . ان غاية المؤسسة هي صناعة السيارات ، ولكن غاية العمال هي ان يأخذوا اجوراً . ومن حيث الشعور الداخلي ليست هنالك غاية مشتركة ، ولا توجد الغاية الموحدة الا لدى المالكين والمديرين ، وهي قد تكون معدومة تماماً بين معظم اولئك الذين يقومون بالعمل . قد يكون بعضهم فخوراً بجودة السيارات التي ينتجونها ، ولكن معظمهم معنيون ، في نقاباتهم ، بالاجور وساعات العمل بشكل رئيسي .

وهذا الشر ملازم الى حد غير قليل ، للآلية الكبيرة

مضافة الى ضخامة المؤسسة . فبسبب الاولى ، لا يصنع احد قسماً كبيراً من سيارة ، وانما يقوم بصنع جزء صغير واحد من قطعة ما ؛ وكذلك فإن مقداراً كبيراً من العمل لا يتطلب الا مهارة قليلة ، وهو مطرد النسق تماماً . وبسبب الاخيرة (ضخامة المؤسسة) فإن الجماعة التي تصنع معاً سيارة واحدة ليس بينها شيء من الوحدة وحس التضامن ، كما هو الامر بين الادارة والمستخدمين . ان هنالك تضامناً بين المأجورين ، وقد يكون هنالك تضامن في الادارة . لكن تضامن المأجورين ليست له علاقة بالانتاج ؛ انه معني بزيادة الاجور وتقليل ساعات العمل . اما الادارة فقد تعتز بالانتاج ، ولكن عندما تصبح الصناعة تجارية تماماً ، لا يكون هنالك الا ميل للتفكير في الربح فقط ، وهو الذي كثيراً ما يضمنه الاعلان بأيسر مما تضمنه الصناعة المحسنة .

لقد ادى امران الى تضاؤل الاعتزاز بالصنعة . فكان الاول هو اختراع النقود ؛ وكان الثاني هو الانتاج الواسع . اما التداول فأدى الى تقييم السلعة بثمنها ، وهو ليس امراً يعتمد على طبيعتها وانما هو المعنى الذي تشترك فيه مع السلع الاخرى . اما الاشياء التي لا تصنع للمبادلة فيمكن ان تقيّم لماهيتها وليس بما تباع به . ان الحدائق المنزلية في قرى الريف كثيراً ما تكون خلابة ، وقد تكون كلفت جهداً كثيراً ، ولكنها لم يقصد بها ان تأتي

بأي جائزة نقدية . والأزياء الريفية التي قلما تستعمل الآن الا لأمتاع السائحين ، كانت قد صنعتها أسر من يلبسونها ، وليس لها ثمن . ومعابد الاكروبوليس وكاتدرائيات العصور الوسطى لم تبن لأي دافع مالي ، ولم تكن قابلة للتبادل يوماً ما . وبتدرج شديد ، حل الاقتصاد النقدي محل اقتصاد كانت تنتج فيه الاشياء لاستعمال المنتج ، وقد سبب هذا التغير النظر الى السلع حسب فائدتها اكثر مما حسب ما فيها من بهجة »

وقد دفع الانتاج الكبير هذه العملية process الى آفاق جديدة . افرض انك صانع ازرار : فأنت مهما قد تكون ازرارك جيدة ، لا تحتاج الا لعدد قليل لاستعمالك الخاص . اما الباقي كله فانك تريد أن تستبدله بطعام ومأوى ، وسيارة ، وتربية اطفالك ، وما الى ذلك . وهذه الاشياء كلها لا تشترك مع الازرار في شيء الا في القيمة النقدية . وحتى هذه القيمة النقدية للازرار هي ليست ما يهمك ؛ ان ما يهمك هو الربح ، اي زيادة قيمة بيعها عن تكاليف انتاجها ، وهي قد تزداد بالتقليل من جودتها الحقيقية . والواقع ان فقدان الجودة الحقيقية ينتج عادة من اتخاذ الانتاج الكبير بدلاً من الطرق الانتاجية الاكثر بدائية .

هنالك بالاضافة الى النتائج التي ذكرناها سابقاً ، نتيجتان أخريان للتنظيم الحديث تميلان للتقليل من اهتمام المنتج بالانتاج . فاحداهما هي غموض remoteness المنفعة المرجوة .

من العمل ؛ والاخرى هي الانفصال بين الادارة والعامل.

فمن حيث غموض المكسب ، افترض انك تشتغل الآن في قسم ثانوي من صنع سلعة للتصدير — ولنفرض مرة اخرى انها سيارة . لقد قيل لك ، بمزيد من التوكيد ، ان تصدير السلع ضروري لتكون لدينا القدرة على شراء الطعام . إن الطعام الكثير الذي يشترى نتيجة لعملك لا يأتي اليك شخصياً ، ولكنه يتقسّم بين الاربعين مليوناً ، او ما اليها ، الذين يقطنون الجزر البريطانية . فاذا تغيبت عن العمل يوماً واحداً ، فليس في ذلك ضرر مرئي على الاقتصاد القومي . انك لا تستطيع الا بجهد عقلي ان تعي الضرر الذي توقعه بعدم العمل ، ولا تستطيع الا بجهد خلقي ان تقوم بعمل اكثر مما هو ضروري لبقائك في وظيفتك . ويختلف الامر كل الاختلاف عندما تكون الحاجة واضحة وملحّة ، كما في سفينة تغرق مثلاً . فهنالك يطيع البحارة الاوامر دون البحث عن تعليل ، لأن لهم غرضاً مشتركاً ليس بعيداً ، والوسائل الى تحقيقه لا يصعب فهمها. ولكن لو ان الربان أرغم ، مثل الحكومة ، على ايضاح جلية الامر ، لكي يبرهن على حكمة اوامره ، فان المركب سيغرق قبل ان ينتهي من محاضرته .

اما الانفصال بين الادارة والعامل فله وجهان ، احدهما الصراع المألوف بين رأس المال والعمل ، بينما الآخر هو مشكلة اكثر شمولاً تربك كل المؤسسات الكبيرة . لست

اريد ان اعرض لأي شيء عن اصطراع العمال ورأس المال ، ولكن حياد الحكومة ، سواء في المؤسسة السياسية او الاقتصادية ، وسواء في النظام الرأسمالي او الاشتراكي ، هو موضوع اقل ابتذالاً الى حد ما ، وهو يستحق النظر.

فمها كان النظام الاجتماعي ، فلا بد ان هنالك مجالاً كبيراً للصراع بين المصلحة العامة ومصلحة هذه او تلك الفئة . ان الارتفاع في ثمن الفحم قد يكون مفيداً لصناعة الفحم وييسر زيادة في اجور المعدنين ، ولكنه ليس مفيداً لأي انسان غيرهم . وعندما تحدد الاسعار والاجور من قبل الحكومة ، فإن كل تشريع لا بد ان يسوء احداً ما. إن الاعتبارات التي ستأخذ بها الحكومة هي اعتبارات عامة جداً ، وبعيدة جداً كما يبدو عن امور الحياة اليومية للعمال، بحيث يصعب كثيراً جعلها تبدو مقنعة . ويسهل تقدير قيمة الفائدة المحلية دائماً اكثر من تقدير قيمة الضرر العام. وهذه الاسباب وما اليها هي ما تجعل الحكومة تجد من الصعب عليها ان تقاوم التضخم المالي ، وتجعلها ، عندما تفعل ذلك ، تثير من حولها كراهية الشعب . ان الحكومة التي تخدم باخلاص مصالح الشعب عامة تجازف في مغامرة تعرضها لأن تظن كل فئة ان تلك الحكومة تتجاهل مصالح هذه الفئة اعتباطاً . وهذه مشكلة تميل ، في النظام الديمقراطي ، لأن تتزايد مع كل زيادة في مقدار الاشراف الحكومي .

واكثر من ذلك ، فإنه سيكون تفاؤلاً في غير محله ، ان نتوقع ان تفعل الحكومة دائماً ، وحتى لو كانت دمقراطية ، خير ما هو في مصلحة الشعب . لقد تكلمت من قبل عن بعض المساوىء المتعلقة بالبيروقراطية ؛ وارد الآن ان انظر منها في المساوىء التي تنطوي عليها علاقة الموظف بالشعب . ففي المجتمع الراقي النظـــام ، يكون لاولئك الذين يشغلون المناصب الحكومية ، من الوزراء حتى اصغر المستخدمين في المكاتب الاقليمية ، مصالحهم الشخصية الخاصة ، التي لا تتفق بأن حال مع مصالح الهيئة الاجتماعية. ومن هذه المصالح ، يشكل حب السيطرة وكراهية الشغل ابرزها . ان المستخدم المدني ، الذي يقول « لا » في مشروع ، يشبع استمتاعه بممارسة السلطة وعدم ميله لبذل الجهد معاً . وهكذا يتراءى ، ويكون ذلك واقعياً الى حدّ ما ، انه عدو لاولئك الذين يُفترض انه يخدمهم.

وللايضاح ، خذ التدابير الضرورية لمعالجة نقص الطعام . فاذا كنت تمتلك حقلاً صغيراً ، فإن صعوبة الحصول على الطعام قد تؤدي بك الى ان تعمل بجدّ اذا سمح لك ان تستعمل محصولك لتزيد به حصتك . لكن معظم الناس لا بد ان يشتروا طعامهم ان لم يكونوا من المشتغلين بالزراعة. وعند تراخي الاحكام **laisser faire** في البلاد ، لا بد ان ترتفع الاسعار ، وسيعاني الجميع ، ما عدا الاغنياء ، نقص التغذية بدرجة خطيرة . ولكن بالرغم من صحة

ذلك ، فإن القليلين منا ممنونون بما فيه الكفاية من خدمات عاملات مكاتب التموين ، واقل من هذا القليل منهن ايضاً يستطيع ان يحتفظ بسبب الارهاق والتعب بموقف كريم من الشعب . فيرى الشعب ، مهما كان في ذلك من تجنب للحق، ان العاملات مستبدات ظالمات ؛ وترى العاملات ان الشعب ثقيل ، صاخب ، اخرق ، يفقد افراده على الدوام اشياءهم او يغيرون عناوينهم . انه ليس من السهل انه ترى ، من حالة كهذه ، كيف يمكن ان يتحقق اتفاقٌ حقيقي بين الحكومة والمحكومين .

ان الطرق التي اكتشفت حتى الآن لإحداث اتفاق جزئي بين المشاعر الخاصة والمصلحة العامة،تعرضت لمختلف انواع الاعتراضات .

ان اسهل موفق واكثره وضوحاً هو الحرب . ففي الحروب القاسية ، عندما تكون سلامة الامة في خطر ، يسهل اقناع كل شخص ان يعمل بكل قوّته ، واذا رأى ان الحكومة ممسكة بزمام الامور فانه يطيع اوامرها عن طيب خاطر . ان الحال هنا كحال السفينة الغارقة . ولكن ما من احد يستحسن اغـراق السفن كوسيلة لرفع روح التعاون لدى البحرية ، ولا نستطيع ان نستحسن الحروب على اساس انها تسبب الوحدة القومية . لا شك انه يمكن ان ينتج بالخوف من الحرب شيء له نفس الاثر ، ولكن الخوف من الحرب اذا استمر قوياً لزمن طويل كاف

فانه من المؤكد سيؤدي الى حرب فعلية ، وهو عندما يقوي الوحدة القومية فانه في الوقت نفسه يسبب الارهاق والهستيريا .

اما المنافسة فهي ، حيث توجد ، حافز قوي جداً . لقد ندد الاشتراكيون بها في مختلف اشكالها ، كاحدى مساوىء المجتمع الرأسمالي ، ولكن الحكومة السوفييتية اعادت لها مكانتهـــا الهامة في المؤسسات الصناعية . وما طرائق ستاناخانوفايت ، التي تثيب بعض العمال لبراعة غير عادية ، بينما تعاقب آخرين لتقصيرهم ، الا احياء لنظام القطعة الواحدة **piece-work** الذي حاربته اتحادات التجارة بعنف ونجاح . لا شك لدي ان هذا النظام له في روسيا المزايا التي ادعاها الرأسماليون سابقاً ، والمساوىء التي اثبتتهـــا الاتحادات التجارية . وكحل للمشكلة السيكولوجية ، فانه بالتأكيد غير ملائم .

ولكن المنافسة ، بالرغم من ان عدة اشكال منها غير مقبولة اطلاقاً ، فانها تلعب ، فيما اظن ، دوراً جوهرياً في اثارة الجهد الضروري ، وهي تقدم في بعض المجالات منطلقاً غير ضار نسبياً لذلك النوع من الدوافع الذي قد يؤدي الى الحرب ان لم يجد مخرجاً . فما من احد سيدافع عن الغاء المنافسة في الالعاب . ولو ان فريقين متبارين في كرة القدم ، تحت تأثير الحب الاخوي ، قررا ان تعاونا في اصابة مرمى احدهما اولاً ، ثم في اصابة مرمى

الفريق الآخر بعدئذ ، فان هذا لن يزيد من سعادة احد . ليس من سبب يوجب ان تكون اللذة الناتجة عن المنافسة مقصورة على الالعاب الرياضية . ان المباراة بين الفرق الرياضية والاقاليم والمؤسسات يمكن ان تتخذ حافزاً مفيداً . ولكن لكي لا تكون المنافسة قاسية وضارة ، فإن عقاب الفاشل يجب ان لا يكون الهلاك ، كما في الحرب ، او الموت جوعاً ، كما في منافسة اقتصاد غير مقيدة ، وانما خسران المجد فقط . ان كرة القدم مـا كانت لتصبح رياضة محببة لو ان الفرق المغلوبة كانت ستعدم او تترك لتموت جوعاً .

لقد قامت في بريطانيا في السنين الاخيرة ، محاولات مشكورة للجوء الى حسن الواجب . ان التقشف ، في الوقت الحاضر ، غير ممكن اجتنابه ، وزيادة الانتاج هو الطريق الوحيدة . هـذا أمر لا يمكن انكاره ، ولجوء كذلك هو بلا شك عمل ضروري في وقت الازمات . لكن حسن الواجب ، مهما يمكن ان يكون قيماً ولازماً في بعض الاحيان ، فهو ليس حلاً ثابتاً ، ولا يحتمل ان ينجح لمدة طويلة . إنـه يتطلب احتمالاً ، ومقاومة مستمرة للدوافع الطبيعية التي ، ان دامت ، لا بـد ان تكون منهكة ومؤدّية لتلاشي الطاقة الطبيعية . واذا بُحث ، لا على أساس اخلاقي تقليدي بسيط كالوصايا العشر ، وانما على أساس اقتصادي وسياسي معقد ، فإن الارهاق سيؤدي

الى الشك في الحجج التي يقوم عليها ، وسيصبح الكثير من الناس اما مهملين فاترين او يحتمل ان يتخذوا نظرية غير صحيحة تفترض ان هناك طريقاً الى الرخاء . ان الناس يمكن ان يحفزهم الأمل او يدفعهم الخوف ، ولكن الامل والخوف يجب ان يكونا قويين ومباشرين ليكونا فعالين دون ان ينتج عنهما الارهاق .

وهذا الى حد ما هو السبب في ان الشائعات الهستيرية ، او على الاقل الدعايات التي يقصد بها ان تسبب الهستيريا ، لها هذا التأثير المنتشر في العالم الحديث . ان الناس يعون ، بطريقة عامة ، ان حياتهم اليومية تتأثر بما يحدث في الاجزاء البعيدة من العالم ، ولكنهم لا يملكون معرفة تمكنهم من ان يفهموا كيف يحدث ذلك ، إلا من كان منهم من ذلك العدد القليل من الاختصاصيين . لماذا لا يوجد هنالك أرز ؟ لماذا أصبح الموز نادراً ؟ لماذا لم تعد الثيران ، فيما يبدو ، تحمل ذيولاً ؟ انك ان القيت اللوم على الهند ، او الروتين ، او النظام الرأسمالي ، او الدولة الاشتراكية ، فانك تستحضر في عقول الناس شيطاناً اسطورياً ، شخصاً من السهل الشعور بكراهيته . والبحث عن عدو نلقي عليه اللوم في كل مصيبة دافع طبيعي ؛ فالمتوحشون يعزون كل مرض لسحر معادي . وعندما يصعب كثيراً فهم أسباب متاعبنا ، فاننا نميل للارتداد لهذا النوع البدائي من التعليل . ان الصحيفة التي تتحدث الينا

عن وغد لنكرهه تروقنا أكثر بكثير من صحيفة تبحث كل تعقيدات نقص الدولار . وقد اقتنع كثير من الألمان ، عندما كابدوا الضيق بعد الحرب العالمية ، ان اليهود هم الذين يجب ان يلاموا .

ان اللجوء الى كراهية عدو مفترض كحل لكل ما هو مؤلم في حياتنا هو عادة أمر مدمر مهلك ؛ انه يحرك طاقة بدائية غريزية ، ولكن بطرق تؤدي الى المصائب . هنالك عدة طرق للتخفيف من حدة اللجوء للكراهية . وأفضل الطرق ، كما هو واضح ، ان نعالج ، حيث يمكن ذلك ، المساوىء التي تجعلنا نبحث عن عدو . وعندما لا يستطاع تحقيق هذا ، فانه قد يكون من الممكن احياناً ان ننشر فهماً صادقاً للاسباب التي تنتج عنها نشراً واسعاً . ولكن هـذا يصعب ما دامت هنالك تلك السلطة الهائلة للسياسة والصحافة التي تنمو بتشجيع الهستيريا لدى الشعب .

اني لا أرى ان النكبة ، في ذاتها ، تنتج ذلك النوع من الكراهية الذي أدى ، مثلاً ، الى ظهور النازية . اذ كان لا بد ان يكون هنالك حسّ بالخيبة مع حس النكبة . ان أسرة سويدية ، كأسرة روبنسن ، اذ تجد الكثير لتفعله في جزيرتها ، سوف لن تضيع الوقت في الكراهية . ولكن في حالة أكثر تعقيداً ، قد تكون النشاطات التي هي في الواقع ضرورية هي أقل كثيراً من ان تكفي لتحقيق مطلب مباشر للافراد . ففي الوضع الصعب الحاضر للاقتصاد

البريطاني القومي ؛ نعرف اجمالاً ما الذي نحتاجه : زيادة في الانتاج ، وتخفيفاً في الاستهلاك، وارتفاعاً في الصادرات. ولكن هذه امور عامة ضخمة ، وهي لا علاقة لها بمصلحة رجال ونساء مخصوصين . واذا كان لا بد من تنفيذ هذه النشاطات التي نحتاجها على هذه الأسس الشاملة Remote فيما تظهر ، تنفيذاً تدفعه الهمة والغبطة ، فانه يجب ان توضع طرق لخلق سبب أقرب من تلك الأسس للقيام بما يحتاج اليه الاقتصاد الوطني من عمل . وهذا يتطلب ، كما أظن ، تحويلاً Devolution موجهاً ، وفرصاً لعمل مرغوب مستقل بشكل معتدل ، يقوم به أفراد او جماعات غير كبيرة جداً .

(ان الديمقراطيـــة ، كما هي قائمة في الدول الكبيرة الحديثة ، لا تعطي مجالاً كافياً للمبادرة السياسية الا لاقلية ضئيلة . لقـــد اعتدنا الاشارة الى ان ما دعـــاها اليونان « ديمقراطية » وقفت عند النساء والعبيد ، ولكننا لا نتبين دائماً انها كانت من بعض الوجوه الهامة أكثر ديمقراطية من أي نظام أصبح ممكناً عندما اتسعت رقعة الحكومة . لقد كان كل مواطن يستطيع ان يصوت في كل موضوع اذ لم يكن عليه ان يفوض سلطته لمن يمثله . فقـــد كان يستطيع ان ينتخب الموظفين التنفيذيين ؛ بما في ذلك قادة الجيش ، وكان يستطيع ان يكون له تأثير مرموق بمناقشة زملائه . انني لا افترض ان هذا النظام كان خيراً بكليته ،

فلقد كانت له ، في الواقع ، مساوىء كبيرة جداً ، ولكنه من حيث تيسيره مبادرة الفرد كان أرقى بكثير من أي نظام قائم في العالم المعاصر .

وللايضاح ، خذ مثلاً علاقة دافع الضريبة العادي بالاميرال . ان دافعي الضرائب ، من وجهة عامة ، هم مستخدمو (بكسر الدال) الاميرال . فإن وكلاءهم في البرلمان يصوتون على راتبه . ويختارون الحكومة التي تعتمد السلطة التي تعين الاميرال . ولكن ، لو ان دافع الضرائب هذا حاول ان يتخذ نحو الاميرال موقف التسلط المعتاد من المستخدِم نحو المستخدَم ، فإنه سيوقف عند حده فوراً . فالاميرال رجل عظيم ، وهو المعتاد على ممارسة السلطة ، بينما دافع الضرائب العادي ليس كذلك . ويصدق الشيء نفسه ، بدرجة أقل قليلاً ، في كل المصالح العامة Public Services . انك حتى لو أردت ان تسجل رسالة في مكتب البريد ، فان الموظف في وضع يخوله السلطة في تلك اللحظة ؛ انه على الاقل يستطيع ان يقرر متى يلاحظ انك تستحق الاهتمام . واذا كنت تريد منه شيئاً أكثر تعقيداً ، فهو يستطيع ، اذا حدث ان كان عكر المزاج ، ان يسبب لك ازعاجاً غير قليل ! انه يستطيع ان يرسلك الى شخص آخر ، قد يعيدك بدوره الى الشخص الاول ؛ ومع ذلك فانهما كليهما يعتبران « خادمين » للشعب . ان الناخب العادي ، إذ يجد نفسه

بعيداً كل هذا البعد عن كونه مصدر كل سلطة للجيش، والاسطول ، والشرطة ، والمصالح العامة ، يشعر انه تابعهم الوضيع ، الذي واجبه ، كما اعتاد الصينيون ان يقولوا « ان يرتعد ويطيع » . وما دامت السيطرة الديمقراطية ضعيفة وطفيفة ، بينما ترتبط دوائر المصالح العامة بالمركز ، ومن هذا المركز تُفوّض السلطةُ الى المحيط ، فإن حس الفرد بعجزه أمام السلطات القائمة من الصعب اجتنابه . ومع ذلك فانه يجب اجتنابه اذا كان لا بد للديمقراطية من ان تكون حقيقية حسية لا في هيكل الحكم وحسب .

(ان معظم المساوىء التي شغلتنا في هذه المحاضرة ليست شيئاً جديداً. فقد عاش معظم الناس في المجتمعات المتمدينة ، منذ فجر المدنية ، حياة ملؤها الشقاء ؛ لقد كان المجد والمغامرة ، والمبادرة ، للاقلية الممتازة ، بينما لم يكن أمام عامة الشعب الا حياة الكدح الشاق مع المعاملة القاسية من حين لآخر . لكن اوروبا اولاً ، ثم العالم كله تدريجياً ، قد استيقظ على مثل أعلى جديد . اننا لم نعد نرضى بأن أقلية يجب ان تستمتع بكل الطيبات ، بينما تعيش الكثرة حياة بؤس . ان مساوىء الحركة الصناعية الاولى أثارت هزة جزع ما كانت لتسببها في عصور الرومان . فألغيت العبودية لأنه نما احساس بأنه يجب ان لا يُعتبر أي كائن انساني مجرد أداة لنجاح انساني آخر . ولم نعد ، من الوجهة النظرية على الاقل ، نحاول ان ندافع عن استغلال الملونين

من قبل الفاتحين البيض . وانبثقت الاشتراكية عن الرغبة في تضييق الهوة بين الغني والفقير . وقامت في كل اتجاه ثورة على الجور وعدم المساواة ، وامتعاض من اقامة صرح فخم فوق أسس من الشقاء والانحطاط .

يعتقد الكثيرون جداً الآن ان مدى التأثير الثوري لهذه العقيدة الجديدة في تاريخ الجنس البشري الطويل لم نتبينه تبيناً كافياً . وفي هذا الاعتبار تبدو السنون المائة والستون الاخيرة كثورة مستمرة منبعثة من هذه الفكرة . وهي ككل العقائد الجديدة الفعالة ، لا تستريح لها النفس وتتطلب تعديلات عسيرة ، وهنالك — كما حدث في العقائد الاخرى — خطر الاخذ بالوسائل بدلاً من الغايات ، مع نسيان الغايات نتيجة لذلك . ويخشى ، في سعينا وراء المساواة ، ان الاشياء الخيرة التي توجد صعوبة في توزيعها بالتساوي ، قد لا تقبل على انها خير . ان بعض مجتمعات الماضي غير العادلة قد أعطت لأقلية منها فرصاً قد لا يعطيها المجتمع الجديد الذى ننشد بناءه ، وان غفلنا ، لأي انسان . انني عندما أتحدث عن مساوىء اليوم ، لا افعل ذلك لأدعي انها أعظم من مساوىء الماضي ، وانما لأؤكد ان ما كان خيراً في الماضي يجب ان ينتقل الى المستقبل ، دون ان يمسه النقل بالضرر جهد الامكان . ولكن لكي يتحقق هذا ، فاننا لا بد وان نتذكر أشياء كنا خليقين

بأن ننساها في مخططات يوتوبيا [1] .

ومن بين الاشياء التي هي في خطر التضحية بها دونما ضرورة من اجل المساواة الديمقراطية ، وربما أكثر هذه الاشياء أهميــة ، احترام الذات . وأعني باحترام الذات النصف الخير من الكبرياء ، الذي يدعى « الكبرياء المعتدلة Proper Pride » . امــا النصف الشرير فهو حس الافضلية . ان احترام الذات يقي الانسان الشعور بالضعة عندما يكون في قبضة الاعداء ، ويمكنه من ان يشعر انه قد يكون على حق عندما يقف العالم ضده . واذا لم تكن للانسان هذه الصفة ، فأنه سيشعر ان رأي الاغلبية ، أو رأي الحكومة ، يجب ان ينظر اليه على انــه معصوم ، ومثل هذا الشعور ، اذا أصبح عاماً ، يجعل كلاً من التقدم الاخلاقي والعقلي مستحيلاً .

لقد كان احترام الذات حــتى الآن ، بالضرورة ، فضيلة الاقلية . وعندما يكون هناك عدم مساواة في السلطة ، فانه لا يحتمل ان يوجد لدى اولئك الذين يخضعون لحكم الاخرين . ان احدى صفات المستبدين التي تثير السخط ، أنهم يسوقون ضحايا الظلم ليشيدوا بمن يسيئون معاملتهم . لقد كان المصارعون الرومان يتقدمون لتحية الاباطرة الذين

---

١ كتاب ألفه سير توماس مور عام ١٥١٦ تمثل فيه جزيرة خيالية يسكنها شعب مثالي وذات نظام سياسي مثالي ، ويصف فيه فردوساً اجتماعياً وسياسياً ؛ متوسلا بهذه الطريقة الى نقد الحكومة الانجليزية والملك في ذلك العهد . (المترجم)

هم على وشك ان يجعلوا نصفهم يقتل لتسليتهم . وعندما كان دستويفسكي وباكونين في السجن ، تظاهرا انهما يريان في القيصر نيقولا رأياً حسناً . وكثيراً ما يقدم اولئك الذين تصفيهم الحكومة السوفييتية اعترافاً مهيناً بالذنب ، بينما ينهمك اولئك الذين تخطئهم الشبكة في مداهنة تعافها النفس ومحاولات ملحّة لاتهام زملائهم . ان نظام الحكم الدمقراطي يحتمل ان يتجنب هذه الاشكال الفظة من اذلال النفس ، ويستطيع ان يهيء فرصاً مضمونة لصيانة احترام الذات . ولكنه يستطيع ايضاً ان يفعل النقيض تماماً .

واذ ان احترام الذات كان في الماضي ، مقصوراً ، بشكل رئيسي ، على الاقلية الضئيلة ، فمن السهل ان يبخس منه اولئك الذين يقفون موقف المعارضة من الفئة المستأثرة بالسلطة . اما اولئك الذين يعتقدون ان صوت الشعب هو صوت الله فهم قد يستنتجون ان اي نوع من التفكير غير العادي او الذوق الخاص هو شكل من اشكال الالحاد ، يجب النظر اليه كتمرد جنائي على سلطة المجتمع الشرعية ، ولا يمكن تجنب هذا الا اذا اعطيت للحرية من القيمة ما للدمقراطية ، ويقيناً ان مجتمعاً يكون كل فرد فيه عبداً للكل ليس افضل الا قليلاً جداً من مجتمع يكون كل فرد فيه عبداً لسيد مستبد . ان هنالك مساواة حيث يكون الكل عبيداً ، كما هو الامر تماماً حيث يكون

الكل احراراً . وهذا يبين ان المساواة ، في حد ذاتها، ليست كافية لتخلق مجتمعاً صالحاً .

لعل اكثر معضلات المجتمع الصناعي اهمية ، وهي بالتأكيد معضلة من اصعب المعضلات ، معضلة جعل العمل جذاباً شيقاً ، بمعنى ان لا يعود بعد ذلك مجرد وسيلة الى الاجور . وهي معضلة تنشأ خصوصاً حيث لا يتطلب العمل براعة . ان العمل الصعب يحتمل ان يكون جذاباً لاولئك الاكفاء للقيام به . ان احاجي الكلمات المتقاطعة والشطرنج مماثلة تماماً لبعض انواع العمل البارع ، ومع ذلك فإن كثيراً من الناس ينفق عليها جهداً كبيراً لمجرد المتعة . ولكنه بازدياد الآلية تنشأ هنالك زيادة مستمرة في عدد جناة الاجور الذين عملهم رتيب وسهل تماماً . ويبين البرفسور أبركروبي في كتابه **Greater London Plan** ، ١٩٤٤، بشكل عرضي وبدون توكيد ، ان معظم الصناعات الحديثة لا تتطلب مؤهلات متخصصة ، وهي لذلك لا تحتاج لأن تتمركز في الاماكن التي تتوافر فيها المهارات التقليدية . فيقول : « ان عدم الاعتماد على اي تمكّن من عمل واحد تزيد من توكيده طبيعة الصناعة الحديثة ، التي لا تتطلب الا مهارة قليلة نسبياً ولكنها تتطلب درجة عالية من الثبات والوثوق ؛ وهاتان صنعتان يمكن ان توجدا في اى مكان تقريباً بين جمهور الطبقة العاملة » .

ان « الثبات والوثوق » صنعتان مفيدتان جداً بالتأكيد ،

ولكنهما ان كانتا كل ما يتطلبه العمل من الانسان ، فانه لا يحتمل ان يجد عمله شيقاً ، ومن المؤكد تماماً ان تلك المتعة التي قد تتيحها له حياته لا بد انه يجدها خارج ساعات العمل . ولست اعتقد ان هذا محتوم اطلاقاً ، حتى عندما يكون العمل في ذاته رتيباً وغير مشوق .

ان المطلب الاول هو ان يرد الى العامل بعض المشاعر التي كانت في الماضي مرتبطة بالتملك . ان التملك الفعلي غير ممكن للعامل الفرد عندما تدخل الآلية في الامر ، ولكن من الممكن ان توجد هنالك طرق لحفظ ذلك النوع من الكبرياء الناجم عن الشعور بأن هذا العمل هو عملي « انا » . او على اي حال ، عملنا « نحن » ، بمعنى ان يعود الضمير « نحن » على جماعة هي من القلة بحيث يعرف كل منها الآخر ويكون لديها حس ايجابي بالتضامن . وهذا ما لا يضمنه التأميم الذي يترك المديرين والموظفين من البعد عن العمال مثلما هم في النظام الرأسمالي . ان ما نحتاج اليه هو دمقراطية محلية ضيقة النطاق في كل الامور الداخلية ؛ فالرقباء والمديرون يجب ان ينتخبوا من قبل اولئك الذين ستكون لهم عليهم سلطة .

ان صنعة اللاشخصية والتفرد لدى اولئك الذين يسيطرون على المؤسسة الصناعية تفتك بكل احساس بالتملك لدى المستخدم العادي . ويعطي كتاب المستر برنهام « Managerial Revolution » صورة لامكانيات المستقبل .

القريب ، بعيدة عن ان تسر الخاطر . واذا كنا نرغب في تجنب العالم المظلم الذي يتنبأ به ، فإن الامر الاول في الاهمية هو ان نجعل الادارة دمقراطية . وقد عولج هـذا الموضوع في كتاب المستر جيمس جليسبي « Free Expression in industry » معالجة تدعو للاعجاب ، ولا استطيع ان افعل شيئا افضل من الاقتباس منه ، فهو يقول :

« يحدث هنالك حس بالخيبة عندما يكون لدى فرد او جماعة مشكلة خطيرة ولا يستطيعون ان يصلوا بها الى الرأس . وكما هو الحال في مركزية المصالح العامة توجد في المركزية الصناعية ايضاً نفس العراقيل ، والرجوع الى س او ص ، ونفس النظم ونفس الشعور بالضياع والخيبة. (لو انني استطيع فقط ان اصل الى الرئيس ، فسوف يعرف وسوف يرى ....) هذه الرغبة في الوصول الى الرأس هي شيء حقيقي بالغ الاهمية . ان الاجتماع الشهري لممثلي جماعات المستخدمين لا يخلو من قيمة ، ولكنه لا يقوم بديلاً فعالاً من العلاقة الوجاهية بين صاحب الملك والمستخدم . انه لا يعالج من هذا الحال ان يذهب مستخدم في مخزن ، او عامل ما ، بمعضلة الى الرقيب ، فإن هذا الرقيب ، المجرد من السلطة ، لا يستطيع ، بسبب نظام تدرج السلطة ، الا ان يدفع بهذه المعضلة الى الناظر ، وهذا بدوره يرسلها لمدير الأعمال ، الذي يضعها في المذكرة ، للنظر فيها في الاجتماع القادم . او قد ترد

القضية الى مكتب المصالح الشخصية **welfare department**، وهو دائرة ضخمة في شركة ضخمة ، وهو يقوم مقام مدير المصالح او الموظفين ، الذي هو نفسه يقوم مقام المدير العام او المالك في مهمة واحدة من مهامه ، فيعالجها او يدعها تتعثر في طريقها بين اولئك المسؤولين .

« هنالك ما هو ادهى من الحس بالخيبة ، في الشركة الكبيرة ؛ هنالك حس بالجهل المطبق بامر اعمالها لدى كل فرد من مستخدميها . فهو لا يعرف الا القليل عن اهمية عمله في هيكل الشركة الكلي ، وهو لا يعرف من هو الرئيس الحقيقي ؛ وهو كثيراً ما لا يعرف من هو المدير العام ، ولم يتحدث اليه رئيس ادارة الاعمال الا نادراً . ان مدير المبيعات ، ومدير النفقات ، ومدير التخطيط ، ورئيس قسم المصالح الشخصية ، هم مجرد اناس ذوي وظائف حسنة وساعات عمل قصيرة . انه لا يقاس اليهم، فهم لا ينتمون الى مجموعته » .

ان الدمقراطية ، سواء في السياسة او في الصناعة ، لا تكون حقيقة سيكولوجية ما دامت الحكومة او الادارة تعتبر « جماعة اجنبية **They** » ، كهيكل متفرد يمضي في طريقه المتعالية ، ويكون من الطبيعي ان ينظر اليه بعداء — عداء قد يكون خفياً الا اذا اتخذ شكل الثورة . ونحن ، كما يبين المستر جليسبي ، لم نحقق في الصناعة من هـذا القبيل الا القليل ، فالادارة ما تزال ، باستثناء حالات

نادرة ، يسيطر عليها فرد او عدد قليل من الافراد سيطرة مطلقة . وهذا خطر يميل ، اذا ترك دون ضابط ، لأن يتزايد مع كل زيادة في ضخامة المؤسسة .

لقد عاشت اغلبية الجنس البشري ، منذ بدء التاريخ الانساني ، تحت وطأة البؤس والشقاء والظلم ، واحست بعجزها حيال حكم القوى اللاشخصية الصماء ان هذه المساوىء لم تعد ضرورية لقيام المدنية ؛ إذ يمكن القضاء عليها بمساعدة العلم الحديث والتكنيك الحديث ، شريطة ان يستعمل هذان بروح انساني وبتفهم لمنابع الحياة والسعادة. وبغير هذا الفهم فأننا قد نخلق بغفلتنا سجناً جديداً ، لن يتبقى فيه الا ما هو موحش وكئيب وميت روحياً . اما كيف تتقى مثل هذه الكارثة ، فذلك ما سوف انظر فيه في المحاضرتين الاخيرتين .

ملحق :

تقدم لنا صناعة الصوف الاسكتلندي مثالا مثيراً ومؤلماً عن انحطاط الجودة بسبب الطرق الآلية الحديثة . ان قماش التويد المصنوع يدوياً ، والمعروف عالمياً بجودته الممتازة ، كان ينتج منذ امد طويل في الهايلاندز ، وفي جزر هبريد واوركني وشتلاند ، ولكن منافسة التويد المصنوع بالآلات قد ضربت النساجين اليدويين بقسوة ، وتضربهم الضربة القاضية ضريبة البيع **Purchase Tax** ، حسب ما ورد في مناقشات كل من مجلسي البرلمان . والنتيجة ان اولئك الذين

لم يعودوا بعد ذلك يستطيعون ان يعيشوا من ممارسة مهنهم يضطرون الى مغادرة الجزر والهايلاندز ليعيشوا في المدن او حتى ليهاجروا .

ويجب ان توضع في مقابل الحصيلة الاقتصادية اليسيرة من ضريبة البيع التي تعطي من مليون الى مليون ونصف جنيه في العام ، تلك الخسائر الضخمة التي يصعب تقديرها.

فهنالك ، اولاً ، بالاضافة الى تلك الخسائر التي كنا قد عانيناها في هذه الطفرة العمياء الرعناء للثورة الصناعية، خسران مهارة اخرى من المهارات المحلية التقليدية ؛ كانت قد جلبت لمن مارسوها متعة اتقان الصنعة وطريقة في الحياة هي ، مع صعوبتها ، قد هيأت لهم في ظروف الضيق والخطر ، الاعتزاز واحترام الذات ولذة النجاح ، بسبب ما تحتاجه من ذكاء وجهد .

وهناك ، ثانياً ، التناقص في الجودة الحقيقية للانتاج، سواء منها الجمالية او المنفعية .

وثالثاً ، يزيد هذا القتل للصناعة المحلية زيادة هائلة من الميل لنمو المدن نمواً لا تمكن السيطرة عليه ، وذلك ما نحاول في تخطيطنا القومي للإسكان ان نتجنبه . ان النساجين المستقلين يصبحون كائنات من خلية نمل بشرية هائلة بشعة غير صحية . واستقرارهم الاقتصادي لم يعد يعتمد على مهاراتهم الخاصة وعلى قوى الطبيعة . انه يضيع فيما بين مؤسسات قليلة ضخمة ، اذا فشل فيها الفرد فشل الكل،

ولا يستطاع فهم اسباب الفشل .

هناك عاملان يجعلان هذه العملية — اي تمركز microcosm الثورة الصناعية — لا داعي لها في هذا العصر. فمن جهة ، نحن نعرف جيداً ، خلافاً لما كان من امر الصناعيين الاولين الذين لم يستطيعوا ان يتبينوا نتائج اعمالهم الخاصة ، المساوىء التي تنجم عن ذلك . ومن الجهة الاخرى ، لم تعد هذه المساوىء ضرورية لزيادة الانتاج ، او لرفع المستوى المادي لمعيشة العمال . فإن الكهرباء ووسائل النقل الآلي لم تجعل الوحدات الصناعية الصغيرة سائغة وحسب من الوجهة الاقتصادية ، بل جعلتها مرغوباً فيها ايضاً ، لانها توفر نفقة هائلة في النقل والتنظيم . وحيث لا تزال تزدهر صناعة اولية ، فانه يجب ادخال الآلة اليها تدريجياً، على ان تترك في مكانها الطبيعي وفي وحدات صغيرة .

ان تجنب المخاطر التي جربناها ما يزال بوسع تلك الاجزاء من العالم التي ما تزال الصناعة بها ناشئة . فالهند مثلاً ، هي بحكم التقليد ارض مجتمعات قروية . ستكون مأساة لو ان هذه الطريقة في الحياة بكل ما فيها من مساوىء، استبدلت فجأة وبعنف بمساوىء الصناعة الحضرية الاشد منها ، حين تطبق على اناس مستوى معيشتهم ينخفض بدرجة تدعو للرثاء . وقد حاول غاندي ، اذ تحقق من هذه المخاطر ، ان يوقف مجرى الزمن بانعاش نسيج النول اليدوي في كل انحاء القارة الهندية.لقد كان نصف مصيب،

ولكن من الغباوة ان تنبذ الفوائد التي يهبنا اياها العلم ؛ فهي بدلاً من ذلك يجب ان يتمسك بهـا بحرص وتطبق لزيادة الثروة المادية وفي الوقت نفسه ، لحفظ تلك الميزات العذبة للهواء الطلق ، وللاقامة في مجتمعات صغيرة ، وللاعتزاز بالمسؤولية والعمل المتقن ، التي قلما تتيسر للعامل في مدينة صناعية كبيرة . ان انهار جبال هملايا لا بد ان تكفي لتزويدها بكل الطاقة الكهربائية المائية التي تحتاجها لادخال الآلة بالتدريج على الصناعات القروية ولتحسينات لا تقدّر في مصادر الرخاء المادي ، دون التعرض لما يسببه الكساد الصناعي من تدمير واضح او لما هو ادهى من ذلك من الخسران والانحطاط اللذين ينتجان عن الخروج على التقليد بشكل عنيف .

٥

المبادرة وسلطة الاشراف ومجالاتهما الخاصة

إن مجتمعاً سليماً وتقدمياً يحتاج الى كل من سلطة الاشراف المركزية ومبادرة الفرد والجماعة : فبدون سلطة الاشراف تكون هنالك الفوضى ، وبدون المبادرة يكون هنالك الركود . واريد في هذه المحاضرة ان اصل الى بعض المبادىء العامة حول ما يجب ان يشرف عليه من شؤون وما يجب ان يترك منها للمبادرة الشخصية او شبه الشخصية . إن بعض المزايا التي لا بد اننا نرغب ان نجدها لدى مجتمع ما هي مزايا ضابطة **Static** في جوهرها ، ومزايا اخرى فاعلة **Dynamic** بطبيعتها الخاصة . وعلى وجه تقريبي ، فانه يمكننا ان نتوقع ان تكون المزايا الاستاتيكية ملائمة لسلطة الاشراف الحكومية ، بينما يجب ان تنمّى المزايا الدينامية بمبادرة الافراد والجماعات . ولكن

لكي تكون هذه المبادرة ممكنة ، ولكي تكون نافعة اكثر منها متلفة ، فانها ستحتاج الى ان ترعاها مؤسسات ملائمة ، وحماية مثل هذه المؤسسات يجب ان تكون احدى وظائف الحكومة . من الواضح انه لا يستطاع ان تقوم هنالك ، في دولة فوضوية ، جامعات او بحث علمي ، او نشر كتب ، او حتى شيء بسيط من قبيل قضاء يوم عطلة على شاطىء البحر . لم يعد من المستطاع ، في عالمنا المعقد ، وجود مبادرة مقيدة بدون حكومة ، ولكن يمكن لسوء الحظ ان تكون هنالك حكومة بدون مبادرة .

إن الاغراض الرئيسية للحكومة ، كما ارى ، يجب ان تكون ثلاثة : الأمن ، والعدالة ، والصيانة . وهذه الامور هي ذات اهمية قصوى للسعادة البشرية ، وهي امور تستطيع الحكومة وحدهـا ان تحققها . وفي الوقت نفسه فإن اياً منها ليست مطلقة ؛ فكل منها لا بد ، في بعض الظروف ، من التضحية بها الى حدّ ما ، من اجل مقدار من الخير اعظم من هذه التضحيـة . وسأشرح شيئاً عن كل منها على التالي :

فالامن ، بمعنى حماية الحياة والملك ، قد اعتبر دائماً احد الاغراض الرئيسية للدولة . وعلى اي حال فإن عدة دول لم تدرك ، اذ تحمي المواطنين الخاضعين للقانون من المواطنين الآخرين ، ان من الضروري ان تحميهم من الدولة. فحينما يكون هنالك توقيف بامر اداري ، وعقاب دون

اتخاذ الاجراءات القانونية اللازمة ، لا يكون هنالك أمان للاشخاص غير الرسميين ، مهما بلغ إحكام تشريع الدولة . بل ان التزام الاجراءات القانونية اللازمة غير كاف ايضاً، إلا اذا كان القضاة مستقلين عن السلطة التنفيذية . وقد بلغ هذا المنحى في التفكير أوْجهُ في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، تحت شعار « حريــة الرعية Liberty of the Subject او حقوق الانسان » لكن « الحرية » و « الحقوق » التي قصد اليها لا يستطيع أن يحميها سوى الدولة ، هذا اذا كانت الدولة من نوع الدول التي ندعوها حرة . ان الغرب وحده هو الذي وجدت فيه هذه الحرية وهذه الحقوق حمايتها .

ان الحمايــة من هجوم الدول المعاديـة هي اليوم ، بالنسبة لسكان البلدان الغربية ، أكثر أهمية من سواها من انواع الحماية . وهي أكثر اهمية لأنها لم تتحقق ، ولأنها صارت أكثر خطورة عاماً بعــد عام مع تطور أساليب الحرب . ولن يصبح هذا النوع من الحماية ممكناً إلا اذا قامت حكومة عالمية واحــدة تحتكر كل اسلحة الحرب الرئيسية . انني لن استطرد في هذا البحث ، لأنه بعيد الى حدّ ما عن موضوعي ، وانما أود ان أقول فحسب ، وبكل ما يمكن من توكيد ، انه ما لم ، والى ان يتحقق للجنس البشري حماية حكومة عالمية واحدة ، فان كل ذي قيمة ، بغض النظر عن نوعه ، يبقى مهدداً ، ويمكن ان

تدمره الحرب في أية لحظة .

لقد كانت الحماية الاقتصادية من أهم غايات التشريع الانجليزي الحديث . فلقد أزاح التأمين ضد البطالة ، والمرض ، والعوز في الشيخوخة ، من حياة جناة الاجور مقداراً كبيراً من القلق المؤلم على مستقبلهم . وقد ارتقت الحماية الطبية بمقادير زادت من متوسط العمر كثيراً ، وقللت من الامراض واصاباتها . وبوجه الاجمال ، فان الحياة في بلاد الغرب ، بغض النظر عن الحرب أقل خطورة بكثير مما كانت في القرن الثامن عشر ، ويرجع هذا التغير بشكل رئيسي الى مختلف انواع سلطة الاشراف الحكومية .

ان الحماية ، مع انها شيء طيب ولا شك ، قد تطلب الى حد مبالغ فيه فتصير وثناً **fetish** . إن حياة تحوطها الحماية ليست بالضرورة حياة سعيدة ؛ انها قد تعود شؤماً بثقلها ورتابتها . والكثيرون من الناس ، وخصوصاً في شبابهم ، يرحبون بمزج الحياة بتابل من المغامرة الخطرة ، بل وأكثر من ذلك ، انهم قد يجدون راحة في الحرب كمهرب من الطمأنينة المضجرة . ان الحماية غاية سلبية مبعثها الخوف ؛ وان حياة يرتاح لها الانسان يجب ان تكون لها غاية ايجابية تنبعث عن الأمل . وهذا النوع من الأمل المغامر يستلزم المخاطرة ومن ثم الخوف . لكن الخوف الذي نتخيره عن قصد ليس من السوء كالخوف

الذي تفرضه على الانسان ظروف خارجية . ولذلك فنحن لا نستطيع ان نقنع بالامن وحده ، ولا نستطيع ان نتخيل انه يحقق عصر هبوط المسيح أو ظهور المهدي .

اما الآن ، فلنتحدث عن العدالة .

لقد صارت العدالة ، وخصوصاً العدالة الاقتصادية ، غرضاً من أغراض الحكومة ، في الاوقات الاخيرة . لقد آلت العدالة الى تفسيرها بالمساواة ، الا حيث يظن ان موهبة ممتازة تستحق مكافأة ممتازة ومعتدلة في الوقت نفسه . لقد كانت العدالة السياسية ، أي الديموقراطية ، غاية نسعى اليها منذ الثورتين الاميركية والفرنسية ، ولكن العدالة الاقتصادية غاية أكثر منها حداثة ، وتتطلب مقداراً أكبر كثيراً مما تتطلبه تلك من سلطة اشراف الحكومة . ويعتقد الاشتراكيون ، وهم في رأيي على حق ، بأنها تستلزم ملكية الدولة للصناعات الرئيسية وتنظيماً معقولاً للتجارة الخارجية . ان خصوم الاشتراكية قد يحاجّون على ان العدالة الاقتصادية جديرة بأن تشترى بثمن غالٍ ، ولكن لا يستطيع احد ان ينكر انه ، لكي تتحقق ، لا بد من قيام مقدار كبير جداً من سيطرة الدولة على الصناعه والشؤون المالية .

وعلى كل حال فإن هنالك حدوداً للعدالة الاقتصادية ، معترف بها ، ولو ضمناً ، حتى من قبل أشد الغربيين الداعين لها حماساً . فمثلاً ، ان من الأهمية بمكان عظيم ان نجد طرقاً للوصول الى المساواة الاقتصادية بتحسين وضع

تلك الاجزاء من العالم الأقل حظاً من التقدم ، ليس فحسب لأن هنالك مقداراً هائلاً من الشقاء تجب معالجته ، ولكن بالاضافة الى ذلك ، لأن العالم لا يمكن ان يستقر او يأمن الحروب الكبرى ما دام يوجد تفاوت فاحش . لكن محاولة تحقيق مساواة اقتصادية بين الامم الغربية وامم جنوب شرقي آسيا ، بغير الطرق التدريجية ، لا بد ان تهبط بالامم الاكثر رخاء الى مستوى الامم الاقل رخاء دون ان يحقق ذلك أية فائدة تذكر لهذه الامم الاخيرة .

ان العدالة قضية تخضع ، كالامن ، بل وحتى الى درجة أعظم منه ، للتحديد . فهنالك عدالة حيث يتساوى الكل في الفاقة ، مثلما تكون هنالك عدالة حيث يتساوون في الغنى ، ولكن لعله يبدو عملاً عقيماً ان نجعل الاغنياء أكثر فقراً اذا لم يكن ذلك سيجعل الفقراء أكثر غنى . بل ان القضية ستكون أكثر مجانبة للعدالة ، اذا كان سيؤدي بنا الامر ، في سعينا الى المساواة ، الى جعل المعوزين أكثر عوزاً مما كانوا قبلاً . ومن المحقق ان يحدث هذا تماماً لو استلزم تخفيضاً في مستوى التربية والثقافة وتقليلاً من الابحاث المثمرة الجيدة . ولو كانت هنالك عدالة اقتصادية في مصر وبابل ، لما كان فن الكتابة والتأليف سيخترع ابداً . وعلى أي حال ، فليست هنالك ضرورة ، مع طرق الانتاج الحديثة ، لابقاء عدم العدالة الاقتصادية لدى الامم المتقدمة صناعياً لكي تنمي من التقدم في فنون

المدنية . وهنالك خطر واحد ، وهو ان يعتقد ان القضية لم تعد ، كما كانت في الماضي ، تعذُّر ذلك من الناحية العملية الفنية .

ونأتي الآن الى النقطة الثالثة ، وهي الصيانة :

تتطلب الصيانة ، كالامن والعدالة ، عملاً من الدولة . ولست أعني بالصيانة حفظ التراث التذكاري القديم وثروات الجبال ، وصيانة الطرق والمصالح العامة وما الى ذلك ، فحسب ، فهذه الامور تجري فعلاً حالياً إلا في وقت الحرب . إن ما أعنيه بشكل رئيسي هو صيانة مصادر ثروة العالم الطبيعية . وهذه قضية ذات خطورة بالغة ، ولم تلق الا أقل القليل من الاهتمام . فلقد استهلك الجنس البشري خلال المائة والخمسين سنة الاخيرة خامات الصناعة وخصب التربة الذي تعتمد عليه الزراعة ، وقد جرى هذا الاستهلاك المسرف لرأس المال الطبيعي بسرعة بالغة الزيادة . ان أقرب مثال ، بالنسبة للصناعة ، هو الزيت . ان موجود الزيت في العالم غير معروف ، ولكنه بالطبع ليس غير محدود ، ولقد وصلت الحاجة اليه حداً نخشى ان يؤدي الى حرب عالمية ثلثة . وعندما لا يعود الزيت يتوفر بكميات كبيرة ، فان الكثير من طريقتنا في الحياة يجب ان يتغير . واذا حاولنا ان نستبدله بالطاقة الذرية ، فلن يؤدي ذلك الا الى استنفاد مصادر اليورانيوم والثوريوم المتوفرة لدينا . وتعتمد الصناعة في وضعها القائم اعتماداً جوهرياً على

استهلاك رأس المال الطبيعي ، وهي لا تستطيع ان تعيش طويلاً بأسلوبها المسرف الحالي .

واخطر من ذلك ايضاً ، حسب رأي بعض الجهات ، الوضع الذي صارت اليه الزراعة ، كما بينه مستر فوت Vogt بوضوح في كتابه Road to Survival . فان الطرق السائدة في زراعة الارض ، فيما عدا مساحات صغيرة تزرع بعناية (ومنها اوروبا الغربية) تستنفد خصب التربة بسرعة . إن المنطقة الصحراوية الداخلية Dust Bowel في امريكا هي احسن مثال معروف على هذه العملية التخريبية التي تجري في معظم اجزاء العالم . ولا بد مع ازدياد عدد سكان العالم من حدوث هبوط مخيف في الغذاء في الخمسين سنة القادمة ، الا اذا اتخذت خطوات فعالة لتجنب ذلك . ان الترتيبات والبرامج اللازمة معروفة لدى طلاب الزراعة ولكن الحكومات وحدها هي التي تستطيع اتخاذها ، وهي لا تستطيع ذلك الا اذا كانت راغبة في المعارض الشعبية وقادرة على مواجهتها . وقد لقيت هذه المشكلة من الاهتمام مقداراً ضئيلاً جداً . انها يجب ان يواجهها أي انسان يأمل في عالم مستقر يخلو من حروب الافناء — تلك الحروب التي ، لكي تخفف من نقص الطعام ، يجب ان تكون أشد وأكثر تدميراً من الحربين العالميتين السابقتين . ان مسألة الاصلاح الزراعي هذه ، ربما تكون أخطر نفسية سيكون على حكومات المستقبل القريب ان تواجهها ، بعد

قضية منع نشوب الحرب .

لقد تحدثت عن الامن ، والعدالة ، والصيانة ، على انها أكثر وظائف الدولة جوهرية ، لأنها امور لا تستطيع ان تحققها سوى الدولة . لم أعنِ بذلك القول بأنه يجب ان لا يكون للحكومات وظائف اخرى . ولكن يجب ان تكون وظائفها في المجالات الاخرى هي بشكل رئيسي تشجيع المبادرة اللاحكومية ، وخلــق الفرص لممارستها بطرق مجــدية . هنـاك أشكال فوضوية واجرامية من المبادرة لا يمكن التسامح معها في مجتمع متمدن . وهنالك أشكال اخرى من المبادرة ، كمبادرة المخترع الضليع ، التي يعتبرها كل انسان مفيدة . ولكن هناك فئة كبيرة من المخترعين المتوسطين الذين لا يستطاع ان يعرف مقدماً ما اذا كانت نتائج جهودهم ستكون حسنة أم سيئة . ان تحريض الرغبة في الحرية على الخروج الى عالم التجربة هو امر ضروري ، بالنسبة لهذه الفئة غير الواثقة من نفسها خاصة ، لأن هذه الفئة تضم أفضل من ظهروا في تاريخ الاعمال البشرية الباهرة .

ان التجانس **Uniformity** ، الذي هو نتيجة طبيعية لسيطرة الدولة ، امر مرغوب فيه في بعض النواحي وغير مرغوب فيه في نواح اخرى ، ففي فلورنسا ، في زمن ما قبل موسوليني ، كان هنالك نظام واحــد للطرق في المدينة ، ونظام معاكس له في المنطقة المحيطة بها . لقد

كان هذا النوع من الاختلاف غير ملائم ، ولكن الناشية قمعت ما كان في امور اخرى كثيرة من اختلاف مرغوب فيه . انه لشيء حسن ان يكون هنالك بحث ناشط بين مختلف المدارس الفكرية . ففي العالم العقلي تقوم كل حجة لتجنيد الصراع من اجل البقاء ، ذلك الصراع الذي يؤدي ، حسب الظروف ، لبقاء الاصلح . ولكن ، لكـــي تقوم هنالك منافسة فكرية ، لا بد من وجود طرق لتحديــد الوسائل التي يجب ان تستخدم في هذه المنافسة . ان النتيجة يجب ان لا تقررها الحرب ، او اغتيال او اعتقال اولئك الذين يعتنقون افكاراً معينة ، او منع اولئك الذين يعتقون وجهات نظر غير شائعة من تحصيل معاشهـــم . وحيثما يغلب وجود العمل الخاص ، او حيث تكون الدول صغيرة ، كما في عصر النهضة في ايطاليا وكـــما في المانيا في القرن الثامن عشر ، فان هذه الشروط تتحقق الى حد ما بالمنافسة بين مختلف ما يوجد هنالك من الحكام . ولكن عندمـــا تصير الحكومات كبيرة والامكانيات الفردية ضئيلة ، كما آلت اليه الامور في كل انحاء اوروبا ، تفشل الطرق التقليدية لحماية الاختلاف الفكري . ان الطريق الوحيدة التي تبقى متيسرة هي ان تمسك الدولة بزمام الامور وتضـــع نوعاً من القواعد الكوينزبرية [1] يجري بموجبها الصراع .

---

[1] قواعد مقررة للملاكمة وضعها ماركوس الثامن من كوينزبري عام ١٨٦٧ . (المترجم)

ان الفنانين والكتاب هم وحدهم في هذه الايام الذين يمكن ، حسب ما تتيحه لهم الظروف احياناً ان يمارسوا كافراد ، لا بالاضافة الى صفتهم في مجموعة ما ، مبادرة ذات خطورة . عندما كنت في كاليفورنيا ، شرع رجلان هنالك في العمل لاطلاع العالم على حالة العامل المهاجر في تلك الولاية . فأحدهما ، وكان روائياً ، عالج الموضوع في رواية ؛ واما الآخر ، وكان معلماً في جامعة في الولاية ، فقد عالجه في قطعة ممتازة من البحث الاكاديمي . فأما الروائي فقد أثرى . واما المعلم فقد طرد من مركزه ، وعانى خطر الاشراف على الموت جوعاً .

لكن مبادرة الكاتب ، مع انها لا تزال موجودة حتى الآن ، فهي مهددة من عدة نواحٍ . فاذا كان انتاج الكتب بيد الدولة ، كما هو الامر في روسيا ، فان الدولة تستطيع ان تقرر ما الذي يجب ان ينشر منها ، وما لم تفوض سلطتها الى هيئة غير متحيزة على الاطلاق ، فانه يحتمل ان لا يصدر من الكتب الا ما يرضي الزعماء السياسيين منها . وينطبق الشيء نفسه ، بطبيعة الحال ، على الصحف . ولعل التجانس ، في هذا المجال ، امر مدمر ، ولكن لعله النتيجة المحتملة جداً لاشتراكية الدولة المطلقة .

لقد كان رجال العلم ، كما بينت في محاضرتي الثالثة ، يستطيعون سابقاً ان يعملوا بمفردهم كما لا يزال حال

الكتاب الآن ؛ فقلما اعتمد كافندش وفرداي ومندل كلياً على مؤسسات ؛ وكذلك داروين الا بمقدار ما مكنته الحكومة من الاشتراك في رحلة السفينة بيجل Beagle . لكن هذا الانفراد ذهب بذهاب الماضي . فان معظم الابحاث يتطلب اجهزة باهظة الثمن ، ويتطلب بعض انواع البحوث تمويل بعثات الى مناطق صعبة . وبدون تسهيلات تقدمها حكومة او جامعة ، لا يستطيع الا القليل من الناس ان يصلوا الى شيء كثير من العلم الحديث . ولذلك فإن الشروط التي يتقرر بموجبها من الذي يجب ان تتاح له هذه التسهيلات هي ذات خطورة كبرى . فاذا كان اللائقون لذلك هم اولئك الذين يُعتبرون على صواب في الخلافات الفكرية القائمة وحدهم ، فان التقدم العلمي سيتوقف عاجلاً ، وسيفسح السبيل ، الى عهد سلطة مدرسي كذلك الذي خنق العلوم طيلة العصور الوسطى .

اما في السياسة ، فان ارتباط مبادرة الفرد بجماعة امر واضح وضروري . ويستلزم ذلك في العادة جماعتين : الحزب والناخبين . فاذا كنت تود ان تقوم باصلاح ما ، فانك اولاً يجب ان تقنع حزبك بأن يتبنى الاصلاح ، ثم تقنع الناخبين بأن يؤيدوا حزبك . انك ، طبعاً ، قد تكون قادراً على التأثير على الحكومة مباشرة ، ولكن هذا نادراً ما يكون ممكناً في قضية تثير اهتماماً كبيراً لدى الشعب . وعندما لا يكون ذلك ممكناً ، فإن المبادرة المطلوبة

تستلزم طاقة ووقتاً عظيمين ، ويرجح ان تنتهي بالفشل ، اذ ان معظـــم الناس يفضلون التسليم بالامر الواقع ، الا حيث يتعلق الامر بالتصويت ، مرة كل خمس سنوات ، لمرشح يَعد بالاصلاح .

ففي عالم راقي التنظيم ، لا بد للمبادرة الفردية الـتي تعتمد على الجماعة من ان تقتصر عـلى القليلين الا اذا كانت الجماعة صغيرة . فاذا كنت عضواً في هيئة صغيرة فربما امكنك ان تأمل في التأثير في قراراتها . وامـــا في السياسة القومية ، حيث تكون واحـــداً من مجموع يبلغ حوالي (٢٠) مليون ناخب ، فإن تأثيرك يكون متناهياً في الصغر الا اذا كنت فرداً غير عادي او كنت تشغل مركزاً ممتازاً . صحيح انه يكون لك حصة في حكومة الآخرين تبلغ واحداً من عشرين مليوناً ، ولكنه لا يكون لك في حكومتك انت الا حصة تبلغ $\frac{1}{20000000}$ واحـــداً مـن عشرين مليوناً . ولذلك فانت اكثر شعوراً بكونك محكوماً منك حاكمـــاً . وتصير الحكومة في ذهنك « مجموعـــاً They » متفرداً ولئيماً الى حـــد كبير ، وليست جماعة من الناس الذين اخترتهم انت ، بالاتفاق مـــع الآخرين الذين يشاطرونك آراءك ، لينفذوا رغائبك . ان شعورك الخاص ازاء الامور السياسية ، في هـــذه الظروف ، لا يكون ذلك الشعور الذي هدفت الدمقراطية الى وجوده ،

ولكنه اقرب بكثير اليه حيال حكم دكتاتوري .

ان صفة المخاطرة الجريئة ، والاهلية لتحقيق نتائج تتصف بالاهمية ، لا يستطاع استبقاؤها الا اذا امكن ان تفوض السلطة الى الجماعات الصغيرة التي لا يتلاشى الفرد فيها الى مجرد ارقام . ان قيام مقدار ليس بالقليل من سلطة الاشراف المركزية هو امر ضروري ، اذا كان ذلك من اجل الاسباب التي درسناها في بداية هذه المحاضرة ، ليس الا . ولكنه يجب ان تفوض الدولة سلطاتها ، الى ابعد مدى يتفق وهذه الغاية ، الى مختلف انواع الهيئات الاقليمة ، والصناعية ، والزراعية ، حسب وظائفها . ان سلطات هذه الهيئات يجب ان تكون كافية لجعلها تلفت الاهتمام ، ويجد الرجال الاقوياء في الاشتغال بها ما يرضي طموحهم . انها تحتاج ، لكي تحقق الغرض منها ، قدراً معقولاً من الاستقلال المالي . انه لا شيء يبلغ في اخماده وقتله للمبادرة اكثر من ان يكون لدينا خطة مدروسة بعناية وقد رفضتها سلطة مركزية تكاد لا تعرف شيئاً عنها ولا تشعر بشعور من تعنيهم . ومع ذلك فان هذا هو ما يحدث في بريطانيا باستمرار تحت نظام السيطرة المركزية. اننا نحتاج الى نظام اكثر مرونة واقل صلابة لكي لا نجعل احسن الادمغة تصاب بالشلل . ويجب ان يكون من الصفات الجوهرية لأي نظام سليم ان يكون بيد من يشغلهم العمل الذي يراد القيام به اكثر ما يمكن من السلطة .

ان قضية تحديد سلطات مختلف الهيئات ستكون ، طبعاً، معضلة فيها الكثير من التعقيدات . ان المبدأ العام يجب ان يكون : ان تترك للهيئات الصغيرة كل الوظائف التي لا تمنع الهيئات الاكبر منها من تحقيق الغرض منها . واذ نقتصر ، مؤقتاً ، على الهيئات الاقليمية ، نقول انه يجب ان يكون هناك تدرج من الحكومـــة العالمية الى مجالس النواحي Parish . فوظيفة الحكومة العالمية هي منع الحرب، ويجب ان تكون لها فقط تلك السلطات الضرورية لهـــذه الغاية . وهذا يستلزم احتكار القوى المسلحة ، وسلطـــة تصديق وتنقيح المعاهدات ، وحق الفصل في المنازعات التي تقوم بين الدول . لكن الحكومة العالمية يجب ان لا تتدخل في الشؤون الداخلية للحكومات الاعضاء ، الا الى الحد الضروري لضمان مراقبة المعاهدات وبالطريقة نفسها ، فإن الحكومة القومية يجب ان تترك اكثر مـــا يمكن لمجالس الاقاليم Country Councils ، وهذه بدورها تترك اكثر ما يمكن لمجالس القصبات Borough والنواحـــي . ان خسراناً ضئيلاً في الكفاءة قد يتوقع من بعض الوجوه ، ولكن اذا جعلت وظائف الهيئات الثانوية ذات اهمية كافية، فإن الرجال الأكفاء سيجدون في الانتماء اليها ما يرضـــي طموحهم ، وسيعوض النقص الموقت في الكفـــاءة سريعاً باحسن مما كان .

وسواء اكانت المؤسسة اقليمية او ثقافية او ايديولوجية،

فان علاقاتها لا بد ان تكون على نوعين ، فعلاقاتهـا باعضائها ، وعلاقاتها بالعالم الخارجي . اما علاقات المؤسسة باعضائها ، فيجب ، بصفة عامة ، ان تترك لحرية اختيار الاعضاء ، طالما لم يكن في ذلك تعدٍّ على القانون . ومع ان هذه العلاقات يجب ان يقررها الأعضاء ، فان هنالك بعض المبـادىء التي يؤمل ، اذا كان يراد ان يكون للديمقراطية اي واقع حقيقي ، ان يأخذها الاعضاء بعين الاعتبار . خذ ، مثلاً ، مؤسسة كبيرة . ان هجوم الاشتراكيين على الرأسمالية ربما تركز على مسائل الدخل اكثر منه على مسائل السلطة . إن الصناعة عندما تنتقل الى يد الدولة بالتأميم ، تبقى عدم المساواة في السلطة مثلما كانت عليه في زمن الرأسمال الخاص ، والتغير الوحيد الذي حدث هو ان اصحاب السلطة يصيرون الموظفين بدلاً من المالكين. ولا مناص من ان يكون في اي مؤسسة كبيرة موظفون تنفيذيون لهم من السلطة اكثر مما لعامة المستخدمين ، ولكن من المرغوب فيه كثيراً ان لا تزيد هذه السلطة عن ادنى ما تدعو اليه الضرورة ، وان يفسح اقصى ما يمكن من مجال المبادرة لكل عضو من اعضاء المؤسسة وكتاب مستر جون سبيدان لويس **Partner Ship for All-A 34-years Experiment in Industrial Democracy** هو كتـاب شيق حول هذا الموضوع . وما يجعل الكتاب كذلك هو هو انه يرتكز على خبرة عملية طويلة وواسعة لشخص يجمع

بين روح شعبي وجرأة تجريبية . اما من الناحية المالية ، فقد جعل كل العمال في مشروعاته شركاء يتقاسمون الربح ، ولكنه بالاضافة الى هذه البدعة المالية ، ارهق نفسه ليجعل كل مستخدم يشعر بانه يشترك اشتراكاً ايجابياً في ادارة المشروع كله ، مع اني اشك فيما اذا كان من الممكن ، بهذه الوسائل ، ان نمضي في الاتجاه الديمقراطي في الصناعة الى مدى ما يتحتم علينا ان نفعل . وقد انشأ ايضاً نظام اعطاء الوظائف للرجال الاكثر كفاءة لتنفيذ العمل الذي تتطلبه . ومن الشائق ان نلاحظ ان لديه حججاً ضد المساواة في المكافآت ، ليس فحسب على اساس ان اولئك الذين يقومون بعمل صعب يستحقون اجراً افضل ، وانما على اساس ان الاجر الافضل هو سبب للعمل الافضل . فيقول : « ان الوهم كل الوهم ان نتصور ان الاهلية والرغبة في استعمالها هما كلاهما ما يسميه الرياضيون ، فيما اعتقد ، (المعاملات Constants) ، وان ما يتغير هو فقط الدخل الذي قد يحصل عليه العامل مقابل ذلك . ان رغبتك في بذل افضل ما تستطيع ، ليست هي وحدها التي تعتمد اعتماداً كبيراً على ما يدفع ذلك من اجر ، اذ ان كفاءتك الفعلية تعتمد على ذلك الى حد كبير ايضاً . ولا يدفع للناس الاجر الكثير لانهم اكفاء وحسب ؛ انهم ايضاً اكفاء لانهم يأخذون اجوراً عالية » .

وينطبق هذا المبدأ اوسع مما فعل المستر لويس ، اذ

هو لا ينطبق على المكافآت المالية فقط ، وانما على الشرف والمركز الاجتماعي ايضاً . انني اعتقد ان القيمة الرئيسية لزيادة الراتب تكمن ، في الواقع ، في تحسينها للمركز الاجتماعي . ان العامل في حقل العلم الذي يهتف الناس عامة لاهميـــة عمله سيكون له في الشهرة نفس الحافز الذي قد يكون في زيادة الدخل بالنسبة للمشتغل في حقل آخر . ان الامر المهم ، في الواقـــع ، هو التفاؤل ونوع معين من الخفة والابتهاج buoyancy ، وهو ما اصبحت اوروبا تفتقر اليه كثيراً كنتيجة للحربين العالميتين . ان حرية العمل ، بمعنى انعدام رقابة الدولة كما كان يطلب قديماً ، لم تعد تستحق الدفاع عنها ، ولكن من المهم كل الاهمية ، ان تبقى هنالك حرية مبادرة وان يجد الرجال الاكفاء مجالا لمؤهلاتهم .

وعلى اي حال ، فان هذا هو جانب واحد مما نود لو يتحقق في مؤسسة كبيرة . اما الامر الآخر فهو انه يجب ان لا يملك الذين بيدهم السلطة ، مطلق السلطة على الآخرين . لقد حارب المصلحون سلطة الملوك قروناً ، ثم شرعوا يعملون لمحاربة سلطة الرأسماليين . وسيكون انتصارهم في هذه المعركة الثانية عقيماً اذا ادى الى استبدال سلطة الرأسماليـــين بسلطة الموظفين ولا شيء غير ذلك . ان هنالك ، بالطبع ، مصاعب عملية ، لأن الموظفين يجب ان يتخـــذوا في احيان كثيرة قرارات دون انتظار النتائج

البطيئة لعملية ديمقراطية ، ولكنه يجب ان تكون هنالك دائماً امكانيات ، لتقرير الخطوط العريضة للسياسة ديمقراطياً، من جهة ، ولنقد اعمال الموظفين دون خوف من العقاب على القيام بذلك ، من جهة اخرى . واذ ان من الطبيعي ان يحب الرجال الاقوياء السلطة ، فيتراءى ان الموظفين سيرغبون في اغلب الحالات ان يكون لهم من السلطة اكثر مما يجب . ولذلك ، فاننـــا نحس في مؤسسة كبيرة نفس الحاجة للرقابة الديمقراطية التي نحسها في المجال السياسي .

(ان علاقات المؤسسة بالعلم الخارجي قضية تختلف عن ذلك . فهي يجب ان لا تتعين بالقوة المطلقة ، اي بقدرة المساومة والمضاربة لدى المؤسسة المعنية ، ولكنها يجب ان ترجع الى هيئة محايدة حيثما لا يستطاع تقريرها بالمفاوضات الودية . ويجب ان لا يستثنى او يشذ عن هذا المبدأ شيء، حتى يصل بنا الامر الى مؤسسة تشمل العالم كله ، هذا العالم الذي ليست له علاقات سياسية خارجية مع الكواكب الاخرى ، حتى الآن ، واذا كان من الممكن قيام حرب كونيه بين العوالم ، فاننا سنحتاج الى هيئة كونية.

ان الفوارق بين الامم ، ما دامت لا تؤدي الى العدوان، ليست مما يؤسف له بأي حال . ان العيش في بلد اجنبي فترة من الزمن يجعلنا ندرك وجود مواهب تفتقر لها بلادنا اياً كانت . ويصح الشيء نفسه في الفوارق بين مناطق البلاد الواحدة ، وفي فوارق الامزجة الناتجة عن اختلاف

الاعمال . ان تجانس الامزجة وتجانس الثقافة لا بد ان تندم عليه لو تحقق . فلقد اعتمد التطور البيولوجي على فوارق فطرية بين الافراد او القبائل ، ويعتمد التطور الثقافي على الفوارق المكتسبة . وعندما تختفي هذه الفوارق لا تتبقى هنالك اية مادة للاختيار . ويقوم في العالم الحديث خطر داهم من تشابه هذه المنطقة وتلك من النواحي الثقافيـــة تشابهاً شديداً .

ان المبدأ العام الذي يجب ان يعين مجـــالات السلطة ومجالات المبادرة ، يمكن ان يقرر بوضوح ، اذا كان ما اراه حقاً، على اساس مختلف انواع البواعث التي تكوّن الطبيعة البشرية . فمن جهة لدينا بواعث للتمسك بما نملك ، (وفي احيان كثيرة) للاستيلاء على ما يمتلكه الآخرون . ومن جهة خرى ، لدينا بواعث خلاقة ، بواعث لأن نأتي بشيء لم يأت به سوانا ، وقد يتخـــذ هذا الشيء شكلا متواضعاً ، كحديقة منزلية مثلا، أو قد يمثل ذروة الابداع الانساني ، كما فعل شكسبير ونيـــوتن . وبصفة عامة ، فإن تنظيم بواعث التمسك وضبطها بالقانون هو من الوظائف الجوهرية للحكومة ، بينما البواعث الخلاقة ، مع ان الحكومة قد تشجعها ، يجب ان تستمد قوتها الرئيسية من استقلال الفرد او الجماعة .

ان الاشياء المـــادية اكثر التصاقاً بقضية التمسك من الاشياء العقلية ، فان الانسان اذ يأكل قطعة من الطعام

يمنع كل انسان غيره من اكلها ، ولكن الانسان الذي يكتب او يستمتع بقصيدة لا يمنع انساناً آخر من كتابة او الاستمتاع بقراءة قصيدة تماثلها جودة او تفضلها . وهذا هو السبب في ان العدالة امر مهم بالنسبة للاشياء المادية ، ولكن الشيء الذي نحتاج اليه بالنسبة للاشياء العقلية هي الظرف والبيئة التي تجعل الامل في النجاح يبدو معقولا . ليست المكافأة المادية هي التي تحفز الرجال الاكفاء للعمل الخلاق ؛ فإن القليلين من الشعراء او رجال العلم قد أثروا او رغبوا في الإثراء . لقد حكمت السلطات على سقراط بالموت ، ولكنه بقي رابط الجأش تماماً في لحظاته الاخيرة، لانه قام بواجبه . ولو قد كان احيط بالتكريم ولكنه منع من القيام بعمله ، فلعله كان سيشعر بانه عقاب اشد قسوة. وفي الدولة الاستبدادية حيث تسيطر السلطـــات على كل وسائل الشهرة ، يرجح ان يعاني كل ذي ابداع مرموق هـــذا المصير الأشد سوءاً : فسواء أنزلت به العقوبات القانونية ام لا ، فانه غير قادر على نشر آرائه . وعندما يحدث هذا في مجتمع ، فانه لا يعود بعدئذ يستطيع ان يرفد تاريخ الجنس البشري بشيء ذي قيمة .

ان السيطرة على بواعث الجشع والنهب ضرورية حتماً، ولذلك فاننا نحتاج ، من اجل البقاء ، للدول ، بل وحتى لدولة عالمية . ولكننا لا نستطيع ان نرضى بحياة ليس دونها الا الموت ؛ اننا نود ان نعيش حياة سعيدة ، فعالة ،

خلاقة . وتستطيع الدولة ان تهيء لنا بعض الشروط الضرورية لذلك ، ولكن هذا لا يكون الا اذا لم تخنق الدولة ، في سعيها الى الامن ، البواعث البعيدة عن التجانس والتي تعطي الحياة نكهتها وقيمتها ، ان حياة الفرد ما زالت تحتل مكانتها اللائقة ، ويجب ان لا تخضع اخضاعاً تاماً لسيطرة المؤسسات الكبيرة .والاحتراس من هذا الخطر ضروري جداً في هذا العالم الذي خلقه التكنيك الحديث

٦

الاخلاقية الفردية والاخلاقية الاجتماعية

اود في هذه المحاضرة الاخيرة ان اقــوم بأمرين . اولهما ان اكرر باختصار النتائج التي خلصنا اليهــا في المحاضرات السابقة ، وثانيهما ان ابين الارتباط فــيما بين المذاهب الاجتماعية والسياسية من جهة ، والاخلاقية الفردية التي يوجه الانسان بموجبها حياته الشخصية من جهة اخرى ، وان اقدم ، بالرغم من الاحوال السيئة التي تبيّناها والمخاطر التي ادركناها كنتيجة لدراستنا ، بعض الآمال الكبيرة حول المستقبل غير البعيد جداً للجنس البشري ، تلك الآمال التي اعتقد ، من جهتي ، انــه يبررها التقدير الواعــي للامكانيات .

ولنبدأ بالتلخيص . لقد تميزنا ، بصفة عامة ، غرضين رئيسيين للنشاطات الاجتماعية : فالامن والعدالــة ، من

الناحية الاولى ، يتطلبان سيطرة حكومية مركزية ، يجب ان تمتد الى خلق حكومة عالمية لكي تكون مجدية فعالة . اما التقدم فيتطلب ، على النقيض من ذلك ، اوسع مجال للمبادرة الشخصية المتسقة مع النظام الاجتماعي .

ان طريقة تأمين اقصى ما يمكن من هاتين الغايتين هي الاحالة **devolution** . فالحكومة العالمية يجب ان تترك الحكومات القومية حرة في كل شيء لا يتعلق بمنع نشوب الحرب ؛ والحكومات القومية ، بدورها ، يجب ان تترك اكثر ما يمكن من المجال للسلطات المحلية . اما في الصناعة ، فيجب ان لا يظن ان كل المشكلات تحل بالتأميم . ان صناعة كبيرة — كصناعة السكك الحديدية — يجب ان يكون لها مقدار كبير من الحكم الذاتي ؛ وعلاقة المستخدمين بالدولة في الصناعة المؤممة يجب ان لا تكون مجرد صورة معادة لعلاقتهم السابقة بالمستخدمين الملاك . وكل ما يتعلق بالفكر ، كالصحف ، والكتب ، والدعاية السياسية ، يجب ان يترك للمنافسة الحرة ، ويصان بحرص من السيطرة الحكومية ، كما يصان بنفس الحرص من كل شكل آخر من اشكال الاحتكار . لكن المنافسة يجب ان تكون ثقافية وفكرية ، لا اقتصادية او حربية او بوسائل القانون الجنائي .

ان التباين ، في الامور الثقافية ، هو حالة تقدمية . فالهيئات التي لها بعض الاستقلال عن الدولة ، كالجامعات

والجمعيات العلمية ، هي ذات قيمة كبيرة من هـذه الناحية . ان من دواعي الاسى ان نرى رجال العلم ، كما في روسيا الحاضرة ، يرغمون على ان يؤيدوا هذراً مضللا وفق مشيئة سياسيين جهلاء من الناحية العلمية يستطيعون ولا يتورعون عن فرض قراراتهم المزرية باستعمال السلطة البوليسية والاقتصادية . ويستطاع منع مثل هـذه المشاهد المحزنة بجعل وجوه نشاط السياسيين تقتصر على المجالات التي يمكن ان يفترض انهم اهل لها . انهم يجب ان لا يجترئوا على تقرير ما هي الموسيقى الجيدة ، او البيولوجيا الجيدة ، او الفلسفة الجيدة . انني ما كنت لارغب ان تقرّر مثل هذه الامور في هذه البلاد بالذوق الشخصي لأي رئيس وزراء ، سابـق ، او حالي ، او لاحق ، ولو قد كان ذوقه ، بصدفة حسنة ، لا يخطىء .

ونأتي الآن الى مسألة الاخلاقية الفردية ، من حيث موقفها من المؤسسات الاجتماعية والسياسية . ليس من انسان حراً كلياً او عبداً كلياً . ويحتاج الانسان ، بمقدار ما يكون له من حرية ، اخلاقاً شخصية توجـه سلوكه . هنالك من لعله سيقول ان الانسان لا يحتاج الا ان يطيع الدستور الاخلاقي المتبع في مجتمعه . ولكني لا احسب ان اي تلميذ في الانثروبولوجيا (علم طبائع البشر) يستطيع ان يقتنع بهذه الاجابة . ان افعالا من قبيل اكل لحـم البشر ، والتضحية بالانسان ، وقنص الرؤوس ، قد بادت

نتيجة للاستنكار الاخلاقي لعادات اخلاقية عرفية . ان الانسان اذا كان يرغب جدياً ان يعيش افضل حياة تتيسر له ، وجب عليه ان يتعلم ان ينظر نظرة الناقد الى العادات والمعتقدات القلبية التي تسود بصفة عامة بين جيرانه .

اما من حيث الشذوذ ، بدافع من الضمير ، عما يظن انه حق لدى المجتمعات التي ينتمي اليها الانسان ، فاننا يجب ان نميز بين سلطة العادات وسلطة القانون . اننا نحتاج لتبرير عمل يوصف بأنه غير شرعي الى حجج اقوى بكثير مما نحتاج لتبرير عمل يتعارض مع الاخلاق العرفية فقط . وسبب ذلك ، ان احترام القانون امر ضروري لوجود اي نظام اجتماعي يمكن تحمله . عندما يرى الانسان ان قانوناً ما هو قانون فاسد ، فإن له الحق ، وربما كان ذلك واجباً عليه ، ان يحاول ان يغيره ، ولكنه لا يكون على حق في الخروج عليه الا في حالات نادرة جداً . لست انكر ان هنالك حالات يكون فيها عصيان القانون واجباً : فهو واجب عندما يعتقد الانسان اعتقاداً عميقاً ان اطاعته خطيئة . وهذا يشمل حالة المعارض المنصف . ولا تستطيع ان تقول ، وحتى لو كنت مقتنعا تماماً بخطئه ، انه يجب ان لا يعمل ما يملي عليه ضميره . وعندما يكون المشرعون حكماء ، يتجنبون ، الى ابعد حد ممكن ، صياغة قوانين بطريقة تلزم الرجال ذوي الضمير الحي ان

يختاروا بين اقتراف الخطيئة او تنكب ما يعتبر جريمة في عرف القانون .

اظن انه يجب التسليم ايضاً بان هنالك حالات تكون فيها الثورة لها ما يبررها . هنالك حالات تبلغ فيها الحكومة الشرعية من الفساد ما تستحق معه عناء اسقاطها بالقوة ، على الرغم من خطر الفوضى التي يستلزمها ذلك . وهذا الخطر حقيقي تماماً . ومما يستحق الملاحظة ان اكثر الثورات نجاحاً – ثورة انجلترا عام ١٦٨٨ وثورة امريكا عام ١٨٦٦ – قد قام بها رجال كانوا مشربين تشرباً عميقاً باحترام القانون . وحيث ينعدم هذا فإن الثورة تكون معرضة لأن تؤدي اما الى الفوضى او الى الدكتاتورية . ولذلك فإن طاعة القانون ، مع ان هذا ليس مبدأ مطلقاً ، يجب ان تلقى وزناً كبيراً ، ويجب ان لا يقبل الشذوذ عنها الا في حالات نادرة بعد درس كافة الاعتبارات درساً وافياً .

وتؤدي بنا مثل هذه المشاكل الى ثنائية عميقة في الاخلاق ، وهي ، مهما كانت مربكة ، تستدعي منا النظر .

لقد كان للعقائد الاخلاقية ، في التاريخ المعروف ، مصدران مختلفان كل الاختلاف ، احدهما سياسي ، والآخر متعلق بالمعتقدات الدينية والاخلاقية الشخصية . وظهر هذان المصدران في كتاب (العهد القديم) بوضوح تام ، فكان

احدهما الشرع ، وكان الآخر الانبياء . اما في العصور المتوسطة فقد كان هنالك نفس النوع من التمايز بين الاخلاق الرسمية التي تلقنها جماعة الكهنة ، والتقوى الشخصية التي كان يعلمها ويمارسها الصوفيون الكبار . ان هذه الثنائية في اخلاقية شخصية ومدنية **Civic** ، التي ما زالت قائمة ، يجب ان تحسب لهـــا حساباً اي نظرية اخلاقية ملائمة . فبدون الاخلاقية المدنية تضمحـــل المجتمعات ، وبدون الاخلاقية الشخصية لا يكون لوجودها ذاته قيمة . ولذلك فإن الاخلاقية المدنية والشخصية ضروريتان عـــلى السواء لعالم صالح .

ليست الاخلاق معنية **فقط** بواجبي نحو جاري ، مهما يكون من فهم مثل هذا الواجب على وجهه الحق . ان تأدية الواجب الاجتماعي ليست كل ما نحتاجه لخلق حياة حسنة ، فهنالك ايضاً قضية التفاضـــل الشخصي **Private excellence** : لأن كل انسان ، مع انه اجتماعي الى حد ما ، فهو ليس كذلك كلياً . ان لديه افكـــاراً ومشاعر ودوافع قد تكون حكيمة او خرقاء ، نبيلة او وضيعة ، مملوءة بالمحبة او مشحونة بالبغضاء . ولكي تكون حياته محتملة ، يجب ان يكون هناك مجـــال للافضل من هذه الافكار والمشاعر والدوافع ، لانه بالرغم من ان قلة من الناس تستطيع ان تسعد بالوحدة ، فإن اناساً اقل عدداً منهم يستطيعون ان يسعدوا في مجتمع لا يسمح بأي حرية

للعمل الفردي

ان التفاضل الفردي ، مع انه يتمثل الى حد ما في التصرف السليم نحو الآخرين ، فإن له وجهاً آخر ايضاً . فأنت ان اهملت واجباتك في سبيل تسلية تافهة ، فانك ستعاني تأنيب الضمير ؛ ولكنك ان اغراك عنها لوقت ما قطعة موسيقية عظيمة ، او منظر غروب جميل ، فانك سوف تعود دونما أي حس بالخجل ودونما اي شعور بانك كنت تبدد وقتك . ان من الخطر ان يسمح للسياسة والواجب الاجتماعي ان تتحكم تماماً في مفهومنا لما يتكون منه التفاضل الفردي . ان ما احاول ان اخلص اليه ، مع انه لا يرتكز الى اي عقيدة ميثولوجية ، ينسجم انسجاماً شديداً مع الاخلاقية المسيحية . لقد اقر سقراط والحواريون اننا يجب ان نطيع الله اكثر مما نطيع الانسان ، وفرضت الاناجيل حب الله بنفس التوكيد الذي فرضت به حب الجار . إن كل الرؤساء الدينيين الكبار ، وكذلك كل عظماء الفنانين والرواد العقليين ، قد أبدوا نوعاً من الالتزام الاخلاقي ليحققوا دوافعهم الخلاقة ، ونوعاً من الغبطة exaltation الاخلاقية اذ فعلوا ذلك . وهذا الانفعال هو اساس ما تدعوه الاناجيل الواجب نحو الله ، واكرر انه مستقل عن العقيدة الدينية . ان الواجب نحو الجار ، كيفما يفهمه جاري ، قد لا يكون كل واجبي . واذا كان لدي اعتقاد عميق نابع من الضمير بانني يجب ان

اتعرف بطريقة تحرمها السلطات الحكومية، فانني يجب ان اتبع اعتقادي. وعلى العكس من ذلك، يجب ان يتيح لي المجتمع الحرية لاتباع اعتقادي الا حينما تكون هنالك اسباب قوية لردعي.

لكن التصرفات النابعة عن حس الواجب ليست هي وحدها التي يجب ان تكون حرة من الضغط الاجتماعي الزائد. فالفنان او الرائد العلمي يجب ان يكون لديه دافع تلقائي لكي يرسم او يكتشف، لأنه، اذا لم يكن لديه هذا الدافع فسوف تكون رسومه عديمة القيمة واكتشافاته عارية من الاهمية.

ان مجال العمل الفردي يجب ان لا يعتبر ادنى اخلاقياً من مجال الواجب الاجتماعي. إذ ان بعضاً من افضل النشاطات البشرية هي، على النقيض من ذلك؛ شخصية اكثر منها اجتماعية، وإنْ من حيث الشعور الداخلي على الاقل. وكما قلت في المحاضرة الثالثة، فان الانبياء، والصوفيين، والشعراء، والرواد العلميين، هم اناس يتحكم في حياتهم إلهام؛ وهم بالضرورة رجال متفردون. وعندما يكون دافعهم المسيطر قوياً، يشعرون انهم لا يستطيعون ان يطيعوا السلطات اذا سارت في اتجاه معاكس لما يعتقدون اعتقاداً عميقاً بأنه الحق. ومع انهم، لهذا، كثيراً ما يضطهدون في زمنهم، فهم أهل، من دون كل الناس، لأن تغدق عليهم الاجيال اللاحقة اسمى التكريم. إن امثال هؤلاء الرجال هم الذين اوجدوا في

العالم ، اعظم الاشياء التي نقدمها ، لا في الدين ، والفن والعلم فحسب ، وانما ايضاً في طريقة شعورنا نحو جارنا، لأن كل تقدم في حس الالتزام الاجتماعي، كما في كل شيء سواه ، كانت تعود الى حد كبير الى الأناس المنفردين ، الذين لم تكن افكارهم وانفعالاتهم خاضعة لسلطان الجماعة.

ولكي لا تصبر الحياة الانسانية قاتمة ومملة ، فان من المهم ان نتحقق أن هنالك اشياء لها قيمة مستقلة تماماً عن المنفعة . إن المفيد مفيد لأنه وسيلة الى شيء آخر ، وهذا الشيء الآخر ، اذا لم يكن هو ايضاً وسيلة بدوره، يجب أن يقيم لذاته، لأن الفائدة لا تكون بغير ذلك الا سراباً خادعاً.

ان الوصول الى الاتزان الصحيح بين ترجيح الغايات وترجيح الوسائل هو امر صعب وهام معاً . فاذا كنت معنياً بأن تؤكد جانب الوسائل ، فانك قد تجد ان الفرق بين الانسان المتمدن والهمجي ، بين البالغ والطفل ، بين الانسان والحيوان ، يكمن الى حـــد كبير في الفرق في الاهمية المعطاة الى الغايات والوسائل في السلوك . يؤمن الانسان المتمدن على حياته ، بينما لا يفعل الهمجي كذلك؛ ينظف البالغ اسنانه ليقيها من التسوس ، ولا يفعل الطفل ذلك الا بالاكراه؛ يشتغل الناس في الحقول ليهيئوا الطعام لفصل الشتاء ، ولا تفعل الحيوانات كذلك . ان بعـد النظر **Forethought** الذي يستلزم القيام بأشياء غير سارة الآن سعياً وراء اشياء سارة في المستقبل ، هو احدى أشد

علامات التقدم العقلي جوهرية . وإذ ان بعد النظر صعب ويتطلب ضبط الدوافع ، فقد اكد الاخلاقيون ضرورته، والقوا من التوكيد على التضحية الآنيّة أكثر مما ألقوا على لذة المكافأة اللاحقة . انك يجب ان تفعل الخير لأنه خير لا لأنه الطريق للوصول الى الجنة . انك يجب ان توفر لأن كل الناس العقلاء يفعلون ذلك ، وليس لانك قد تجمع في النهاية مبلغاً يمكنك من الاستمتاع بالحياة ، وهكذا .

لكن الانسان الذي يود ان يؤكد جانب الغايات اكثر من جانب الوسائل يقدم حججاً معاكسة ومساوية في صحتها للحجج السابقة . ان مما يدعو للرثاء ان نرى رجل اعمال كهلاً غنياً ، وقد صار بسبب العمل والمشقة في شبابه مصاباً بعسر الهضم ، بحيث انه لا يستطيع ان يأكل سوى الخبز المحمّر ولا يشرب سوى الماء القراح بينما يستمتع عياله المهملون بالطيبات ، ان لذة الغنى التي كان قد توقعها طيلة سنين عديدة من الكد ، تفلت منه، وتكون لذته الوحيدة هي استعمال سلطته المالية لارغام بنيه لأن يخضعوا لكد عميق مماثل . ان البخلاء الذين يكون انهماكهم في الوسائل حالة مرضية ، يعتبرون عموماً انهم غير حكماء ، لكن الاحوال الاخف من نفس الداء تكون عرضة لأن تلقى ثناء اكثر من اللازم . وبدون شيء من الشعور بالغايات ، تصبح الحياة موحشة وباهتة ؛ وفي النهاية، فإن الحاجة الى الانفعال كثيراً ما تجد في الحرب او الفظاظة

او الدسائس او اي نشاط مدمر آخر ، مخرجاً اسوأ مما كانت ستفعل لو اختلف الحال .

إن الناس الذين يفخرون بكونهم « عمليين » هم في الاغلب تستأثر بهم الوسائل . ولكن نهجهم هو نصف واحد من الحكمة . وعندما نأخذ في اعتبارنا النصف الآخر ، الذي يتعلق بالغايات ، تتخذ العملية الاقتصادية والحياة الانسانية برمتها وجهاً جديداً كلياً . فلا نعود نسأل بعدئذ : ماذا انتج المنتجون ، وماذا اهّل الاستهلاك المستهلكين لينتجوا بدورهم ؟ وانما نسأل بدلاً من ذلك : ماذا يوجد في حياة المستهلكين والمنتجين ليجعلهم سعداء بأن يكونوا احياء ؟ ماذا احسوا او عرفوا او فعلوا مما يبرر خلقهم ؟ هل جربوا روعة المعرفة الجديدة ؟ هل عرفوا الحب والصداقة ؟ هل فرحوا بضوء الشمس والربيع وشذى الازهار ؟ هل احسوا بفرح الحياة الذي تعبر عنه المجتمعات البسيطة بالرقص والغناء؟؟ دعيت مرة في مكسيكو لاشاهد مستعمرة مكسيكية — جماعة من المتشردين الكسالى ، كما قيل لي ، ولكنه بدا لي ان نصيبهم في الحياة مما يجعلها نعمة لا نقمة اكثر من نصيب الكادحين القلقين من الجماعات التي انتمي اليها . وعندما حاولت ان افسر هذا الشعور بطريقة ما ، قوبلت بخلو ذهن وافتقار كلي للفهم .

ان الناس ينسون احياناً ان السياسة ، والاقتصاد ، والمؤسسة الاجتماعية عموماً ، تدخل في مملكة الوسائل ، لا

الغايات . ان تفكيرنا السياسي والاجتماعي ميال الى ما يمكن ان يدعى « مغالطة المدير **administrator's fallacy** » ، التي اعني بها عادة النظر الى المجتمع ككل منظم ، من نوع نظنه صالحاً او نرتاح للتفكير فيه على انه نموذج للنظام ، او كجسم مدبر تتداخل اجزاؤه بعضها ببعض تداخلاً متناسقاً . لكن المجتمع لا يوجد ، او يجب ان لا يوجد ، ليتفق مع تخطيط خارجي ، وانما ليحقق حياة سعيدة للافراد الذين يكونونه . اننا يجب ان ننشد القيمة المطلقة في الافراد ، لا في الكل . ان المجتمع الصالح هو وسيلة لحياة صالحة لأولئك الذين يكونونه ، وليس كياناً له نوع من السمو في ذاته .

عندما يقال ان المجتمع كائن عضوي ، قد يكون من الخطر استعمال القياس اذا لم تعرف حدوده . ان الناس والحيوانات العليا كائنات عضوية بالمعنى الدقيق . فأي خير او شر يصيب انساناً يصيبه هو كشخص كل ، وليس هذا او ذاك العضو منه . فاذا كنت اعاني وجع اسنان او الماً في اصبع قدمي ، فانه انا من يعاني الالم ، وما كان هذا الالم ليوجد لو لم تصل الاعصاب العضو المعني بدماغي . ولكن عندما يقع مزارع في هيرفوردشاير في اعصار ، فان الحكومة في لندن ليست هي التي تحس البرد . وذلك هو السبب في ان الانسان الفرد هو حامل الخير والشر ، وليس اي عضو ينفصل من الانسان ، من جهة ،

او اي مجموعة من الناس ، من جهة اخرى . والاعتقاد بانه يمكن ان يكون في مجموعة الناس خير او شر يتعدى او يزيد على ما في مختلف افرادها من خير او شر ، هو محض خطأ ؛ واكثر من ذلك انه خطأ يؤدي الى الاستبداد رأساً ، وهو لذلك خطأ خطير .

هناك البعض من الفلاسفة ورجال الدولة ممن يظنون ان الدولة يمكن ان يكون لها قيمة excellence خاصة بها ، وليست مجرد وسيلة لخير المواطنين . لا استطيع ان ارى اىما سبب لأوافق على هذا الرأي . إن « الدولة » مجرد ؛ انها لا تحس لذة او المأ ، انها لا آمال ولا مخاوف لها ، وان ما نظنه اهدافاً لها هو في الواقع اهداف الافراد الذين يوجهونها . وعندما نفكر على اساس واقعي ، لا تجريدي ، نجد ، في مكان الدولة ، بعض أناس لديهم من السلطة اكثر مما لمعظم الناس منها . وهكذا فإن تمجيد « الدولة » ينقلب ، في الحقيقة ، الى تمجيد للاقلية الحاكمة . وليس من ديمقراطي يصبر على نظرية جائرة في جوهرها كهذه النظرية .

هناك نظرية اخلاقية اخرى ، وهي في رأيي ليست ملائمة ايضاً ، انها تلك النظرية التي قد تدعى بالنظرية « البيولوجية » ، مع اني لا اود ان اقرر انها تعتنق من قبل البيولوجيين . وهذا الرأي مأخوذ من تأمل في التطور . اذ يفترض ان تنازع البقاء قد ادى بالتدريج الى كائنات عضوية اكثر تعقيداً ، بلغت اوجها (حتى الآن) في

الانسان . هذا الرأي ، يعتبر البقاء ، بل بقاء نوعنا ، هو الغاية العليا . ان كل ما يزيد في عدد سكان الكرة الارضية من بني الانسان ، اذا كانت هـــذه النظرية صحيحة ، يعد « خيراً » ، وكل ما يقلل من عدد السكان يعد « شراً »

اني لا استطيع ان ارى اي مبرر لمثل هذه النظرية الآلية والحددية . ولعله سيكون من السهل ان نجد فداناً واحداً من الارض يحتـــوي من النمل اكثر مما يوجد من الكائنات البشرية في كل العالم ، ولكننا لا نعترف للنمل على هذا الاساس بقيمة ممتازة . ثم ، اي انسان يعمر قلبه شعور انساني سيفضل عدداً كبيراً من الناس يعيشون في البؤس والقذارة على عدد اقل منهم يعيشون حياة سعيدة فيها الكفاية من الهناء ؟

صحيح ، طبعاً ، ان البقاء شرط ضروري لكل شيء سواه ، ولكنه شرط لا غير لما له قيمة ، وقد لا تكون له قيمة هو في ذاته . يتطلب البقاء في هـــذا العالم الذي خلقه العلم الحديث والتكنيك ، مقداراً كبيراً من حكم الحكومة . ولكن ما يعطي البقاء قيمة يجب ان يأتي بشكل رئيسي من مصادر تقع خارج نطاق الحكومة. وقد كان التوفيق بين هاتين الضرورتين المتضادتين هو مشكلتنا في هذه الابحاث.

والآن، اذ نجمع خيوط ابحاثنا، ونتذكر كل مخاطر عصرنا، اود ان اعيد بعض الخلاصات ، وبشكل اخص، ان اعرض

الآمال التي اعتقد ان لدينا اسساً معقولة لوضعهاموضع النظر.

لقد كانت هنالك ، بين اولئك الذين يهمهم اكثر ما يهمهم التماسك الاجتماعي واولئك الذين يقدسون المبـــادرة الفردية بشكل رئيسي ، معركة طويلة العهد ، منذ ايام الاغريق القدماء . ومن المؤكد ، في كل جدل كهذا الجدل الدائم ، ان يكون هنالك حق في جانب كل من الطرفين . ولا يحتمل ان يكون هنالك حل قاطع ، ولكن على احسن الاحوال ، يمكن ان يكون هنالك حل تترتب عليه عدة تعديلات واتفاقات صلحية .

كان هنالك ، كما اشرنا الى ذلك في محاضرتي الثانية ، تراوح بين فترات تعمُّ فيها الفوضى وفترات من السيطرة الحكومية الصارمة جداً ، في كل عصور التاريخ . وفي عصرنا ، يوجد هنالك ، فيما عدا تضية الحكومة العالمية (حتى الآن) ، اتجاه شديد جداً نحو السيطرة ، واهتمام ضئيل جداً بحماية المبادرة . وقد مال الرجال الذين يسيطرون على مؤسسات ضخمة لأن يكونوا تجريديين بشكل شديد في نظرتهم ، وان ينسوا ما هي الكائنات البشرية الحقيقية ، وان يحاولوا ان يكيفوا الناس للانظمة اكثر مما يحاولون ان يجعلوا الانظمة تتكيف لتلائم الناس .

ان الافتقار الى التلقائية الذي تميل مجتمعاتنا الراقيـــة التنظيم لأن تعاني منه مرتبط بالسيطرة المتزايدة على مساحات شاسعة من قبل سلطات نائية عنها .

ان احدى الفوائد التي تجتنى من اللامركزية هي انها تهيء فرصاً جديدة للتفاؤل وللنشاطات الفردية التي تتجسم فيها الآمال . واذا انصرف تفكيرنا السياسي كلـــه الى المعضلات والاخطار الهائلة للمشكلة العالمية ، فمن السهل ان يؤدي بنا ذلك الى اليأس . ان الخوف من الحرب، والخوف من الثورة ، والخوف من التقهقر ، قد تتملكك كلها او بعضها حسب مزاجك وحسب ميول حزبك . وانت لا تستطيع على الارجح ، الا اذا كنت احد ذلك النفر القليل من الاشخاص ذوي النفوذ ، ان تفعل الكثير لمعالجة هذه المهام الضخمـــة . ولكنك تستطيع ان تأمل ، فيما يتعلق بالمشكلات الاصغر منها ــ مشكلات بلدتك ، او محادك التجاري ، او الفرع المحلي لحزبك السياسي ، مثلاً ــ ان يكون لك تأثير ناجح . وهذا سيوجد روحاً متفائلاً ، والروح المتفـــائل هو ما نحتاجه اشد الحاجة لكي نجد طريقة لمعالجة المشكلات الكبرى معالجة ناجحة. ان الحرب والكساد والضائقة المالية قد سببت ارهاقاً شاملاً تقريباً ، وجعلت التفاؤل يبدو تمويهاً وسراباً . ان النجاح ، وحتى لو كان في البدء على نطـــاق ضيق ، هو افضل علاج لهذه الحالة من الاعياء القانط . والنجاح يعني ، بالنسبة لأغلب الناس ، تفكيك مشكلاتنا ، وافساح مجال الحرية لتركيز اهتمامنا على تلك التي لا تبلغ في ضخامتها حداً موئساً.

لقد اصبح العالم ضحية المذاهب السياسية المتطرفة، التي

اقواها ، في عصرنا ، الرأسمالية والشيوعية . انني لا اعتقد ان اياً منهما في شكلها المتطرف غير الملطّف ، تقدم علاجاً للشرور التي يمكن منعها . فالرأسمالية تعطي فرصة المبادرة لنفر قليل ، اما الشيوعية ، فلعلها تستطيع ان تهيء (مع العلم انها لم تفعل ذلك في الحقيقة) نوعاً خانعاً من الحماية للجميع . ولكن اذا استطاع الناس ان يحرروا انفسهم من تأثير النظريات الساذجة سذاجة مفرطة او المشاحنات التي تنشأ عنها ، فسيكون من الممكن ، باستعمال حكم التكنيك العلمي ، ان نهيء كلاً من الفرصة للجميع والحماية للجميع معاً . ولسوء الحظ فإن نظرياتنا السياسية ادنى ذكاء مما وصلنا اليه من مستوى علمي . ولم نتعلم بعد كيف نستفيد من معرفتنا ومهارتنا بالطرق التي تؤدي اكثر من غيرها لأن تجعل الحياة سعيدة بل ومشرقة ايضاً . ليست ممارسة الحرب والخوف منها هما وحدهما ما يضايق الجنس البشري ، رغم ان ذلك قد يكون اعظم كل شرور عصرنا اذ تضيق علينا القوى اللاشخصية الهائلة التي تتحكم في حياتنا اليومية ، جاعلة ايانا عبيداً للظروف مع اننا لم نعد بعد عبيداً في القانون . وليس من حاجة لأن تكون الحال كذلك ، وهي قد تأتت عن عبادة آلهة مزيفين . لقد قدس الرجال الاقوياء السالطة اكثر من السعادة والمحبة البريئة ؛ اما الرجال الادنى قوة فقد خنعوا ، او خدعوا بتشخيص مغلوط لمصادر الشقاء .

ومنذ اخترع الجنس البشري العبودية ، اعتقد الرجال الاقوياء ان سعادتهم يمكن ان تتحقق بالوسائل التي يترتب عليها إيقاع الشقاء بالآخرين . وبالتدريج ، بنمو الديمقراطية وبتطبيق عصري كلي للاخلاق المسيحية على السياسة والاقتصاد ، بدأ يسود مثل أعلى أفضل من تمثل مقتني العبيد ، وأصبحت دعاوى العدالة مسلماً بها الآن ، كما لم تكن قط في أي وقت مضى . ولكننا في سعينا الى العدالة بوضع نُظُم محكمة وقعنا في خطر نسيان أن العدالة وحدها ليست كافية . ان المسرات اليومية ، ولحظات الانعتاق من الهم ، والمغامرة ، والفرصة للنشاطات الخلاقة ، هي على الأقل مساوية للعدالة من حيث أهميتها لتهيئة حياة يستطيع ان يحس الانسان انها تستحق عناء العيش . إن الرقابة قد تكون أشد وطأة من تناوب الفرح والترح . إن اولئك الذين يرتأون التحسينات الادارية وخطط الاصلاح الاجتماعي هم ، في الغالب ، أناس جديون ولّى عنهم الشباب . وهم كثيراً ما ينسون ان التلقائية ليست وحدها الضرورية للسعادة ، بالنسبة لمعظم الناس ، وانما هم يحتاجون لنوع من الفخار الشخصي . ليس فخار الفاتح العظيم مما يستطيع أن يسمح به عالم حسن التنظيم ، لكن فخار الفنان ، والمكتشف ، وفخار الانسان الذي يحول القفر الى حديقة غناء ، او يجلب السعادة الى حيث ما كان ليوجد مكانها لولاه إلا الشقاء — مثل هذا الفخار هو الصالح ، ويجب ان نجعله نظامنا

الاجتماعي ممكناً، ليس للقلة فحسب ، ولكن للكثرة الكثيرة .

إن الغرائز التي كانت تحرك منذ عهد بعيد نشاطات الصيد والحرب لدى أسلافنا المتوحشين تتطلب الآن مخرجاً ، وهي ستتحول الى كراهية وضغينة مؤذية ، ان لم تستطع ان تجد لها مخرجاً أفضل من ذلك . ولكن هناك مخارج غير شريرة لهذه الغرائز بالذات . فالحرب يمكن ان نستبدلها بالمنافسة و لالعاب الرياضية ، ويمكن ان نستبدل الصيد بمتعة المغامرة و لاكتشاف والخلق . اننا يجب ان لا نتجاهل هذه الغرائز ، ولا حاجة بنا لأن نأسف لها ، فهي المصدر ، ليس لما هو شرير فحسب ، وانما لأفضل الاعمال الانسانية ايضاً . وعندما ننتهي من تحقيق الامن ، فإن أهم واجب يلقى بعدئذ على عاتق اولئك الذين ينشدون مصلحة البشرية ، سوف لا يكون مجرد وسائل قمع او مخارج تؤدي الى الدمار ، وانما أكثر ما يمكن من المخارج التي تسبغ متعة وفخاراً ورواءً على الحياة البشرية .

لقد تعرض الناس طيلة عصور التطور الانساني لنوعين من البلاوى : تلك التي تنزلها بهم الطبيعة الخارجية ، وتلك التي توقعها الكائنات البشرية بعضها ببعض نتيجة لسوء التوجيه . وكان أشدها سوءاً في اول الامر هي تلك التي ترجع بسببها الى البيئة ، اذ كان الانسان ذلك النوع الضعيف المهدد البقاء . وبدون ان تكون له خفة الحركة التي للقرود ، ولعريه من أي فراء يكسوه ، وجد صعوبة

في الافلات من الحيوانات المفترسة ؛ ولم يستطع ان يتحمل برد الشتاء في معظم انحاء العـــالم . لقد كانت له ميزتان بيولوجيتان فقط : فقد حرر اعتدال القامة يديه ، وجعله الذكاء قادراً على تناقل التجارب . وبالتدريج منحته هاتان الميزتان السيادة والغلبة . فازداد عدد النوع البشري حتى فاق عـــدد أيٍّ من الحيوانات الكبيرة الاخرى . ولكن الطبيعة كانت ما تزال تستطيع توكيد سلطتها في الفيضانات والمجاعات والاوبئة ، وبالزام الغالبية العظمى من الجنس البشري بكدح متواصل لتأمين خبزهم اليومي .

يتناقص خضوعنا للطبيعة تناقصاً سريعاً في عصرنا هذا ، نتيجة لنمو العقل العلمي . وما تزال المجاعات والاوبئة تحدث ، ولكننا نزداد معرفة ، عاماً بعد عام ، بما يجب ان نفعله اتجنبها . وما يزال العمل الشاق ضرورياً ، ولكن ذلك ليس الا لأننا غـــير حكماء ، فلو تيسر لنا السلام والتعاون ، لاستطعنا ان نحافظ على بقائنا بمقدار معتدل جداً من الجهد . ونستطيع بأساليب التكنيك القائمة ، وفي أي وقت نشاء ان نستعمل حكمتنا ، ان نحرر أنفسنا من أشكال عريقة كثيرة من الخضوع للطبيعة الخارجية .

لكن انواع الأذى التي يوقعها الناس بعضهم ببعض لم تتناقص بنفس الدرجة . فمـــا تزال هنالك حروب ، واضطهادات ، واعمـــال بربرية بشعة ، وما يزال الناس الجشعين يتخاطفون الثروة من اولئك الذين هم أقل منهم

مهارة او أرق منهم قلباً . وما يزال حب السلطة يؤدي الى استبداد واسع او الى مجرد عوائق عندما تكون أشكالها الأكثر غلاظة غير ممكنة . وما يزال الخوف – الخوف العميق ، الذي قلما يظهر على عالم الشعور – هو الدافع المسيطر في حياة أناس كثيرين .

كل ذلك لا تدعو له ضرورة ، وليس هنالك من شيء في الطبيعة البشرية تجعل هـذه المساوىء محتمة . أود ان اكرر ، بكل ما يمكن من توكيد ، انني أخالف مخالفة تامـة اولئك الذين يستنتجون من دوافع العراك فينا ان الطبيعة تتطلب الحرب وتتطلب أشكالاً اخرى مدمرة من الصراع . واعتقد اعتقاداً جازماً بعكس هذا تماماً . وأصر على ان لدوافع العراك دوراً جوهرياً تلعبه ، وانها ، في أشكالها الضارة ، يستطاع التقليل منها الى حد كبير جداً .

ان التكالب على التملك سيخف عندما لا يكون هنالك خوف من الاملاق . وحب السيطرة يمكن ان نشبعه فينا بعدة طرق لا تستلزم إلحاق الحيف بالآخرين : بالسيطرة على الطبيعة بالفتوحات والاختراع ، بانتاج الكتب الرائعة او الاعمال الفنية ، وبالمذهب الناجح . ان الطاقة والرغبة في ان نكون ذوي تأثير ، تكون منحة مفيدة اذا استطاعت ان تجد لنفسها المخرج السليم ، ومؤذية اذا لم تجـد مثل ذلك المخرج – كالبخار الذي لا يستطيع الا ان يدفـع القاطرة او يفجّر المرجل .

ان انعتاقنا من الخضوع للطبيعة الخارجية قد جعل من الممكن تحقيق مستوى أعلى مما وجد حتى الآن من الرخاء البشري . ولكن لكي تتحق هـذه الامكانية ، يجب ان يوجد هنالك حرية مبادرة في كل الطرق التي ليست أكيدة الضرر ، وتشجيع تلك الانواع من المبادرة التي تخصب حياة الجنس البشري . اننا لن نخلق عالماً صالحاً بمحاولتنا جعل الناس خانعين جبناء ، وانما بتشجيعهم ان يكونوا جريئين ومغامرين وغير هيابين إلا في ايقـاع الأذى او إلحاق الحيف ببني جلدتهم . ان امكانيات الخير ، في هذا العالم الذي نجد أنفسنا فيه ، غير محدودة تقريباً ، وليست امكانيات الشر بأقل من ذلك . ان كوننا قد تعلمنا ان نفهم ونسيطر الى درجة مروعة على قوى الطبيعـة التي تحيط بنا ، لا على تلك القوى التي تحتشد في داخلنا ، هو ما ترجع اليه الحال التي نحن فيها الآن أكثر مما ترجع الى أي شيء سواه . لقد كان ضبط النفس دائماً شعار الاخلاقيين ، ولكنه كان في الماضي ضبطاً بدون فهم . وفي هـذه المحاضرات سعيت الى فهم الحاجات البشرية أوسع مما يدعيه معظم السياسيين والاقتصاديين ، لأننا لا نستطيع الا بهذا الفهم وحده ان نجد طريقنا لتحقيق هذه الآمال التي وضعتها مهارتنا في متناول أيدينا بالرغم من اننا بحاجتنا نضبطها الى درجة كبيرة .

Bibliotheca Alexandrina
0203537

الثمن : ٢٠٠ ق.ل.

او ٢٢٥ ق.س.

منشورات دار الطليعة بيروت